المخانق
والمضايق

كتابك
Kitabook

• **عنوان الكتاب:** المخانق والمضايق، بحثا عن نقطة الانعطاف
• **اسم المؤلف:** د. محمد باباعمي
• **الطبعة الأولى:** 1438هـ - 2018م
• **مقاس الكتاب:** 14 × 21
• **عدد الصفحات:** 240
• **رمدك:** ISBN 978-9931-9466-2-5
• **الإيداع القانوني:** السداسي الأول، 2018.

محفوظة جميع الحقوق

Copyright © 2018 Kitabook

كتابك
Kitabook

Kitabook.net

Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

المخانق والمضايق

بحثا عن نقطة الانعطاف

د.محمد باباعمي

كتابك
Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المحتويات 5

المخانق والمضايق 8

المخانق والمضايق «بديلا عن المقدمة» 9

الفقه بين مجتهد ومبتدئ ومغرور 21

اللحية بين المستهتر والمتعصب 23

ليس مجرد سؤال... أعتذر إليك يا رسول الله! 27

من العربي القذر إلى المسلم المتحضِّر (فقدان الذاكرة الكولونيالية) 35

تنامي ظاهرة التطرف، وانتشار الإسلاموفوبيا 38

جزائرنا، هل انتهت؟ 51

«هلك المتنطعون» دردشة في أزمتنا وحقيقة انتخاباتنا... 58

غنم بلا غرم، حين ننتخب ولا نحاسب 64

أيا تلمسان، أنت الأمل وفيك العمل... فَـلِـمْ تتمنَّعين؟! 68

والي ولاية غرداية: وإذا أسند الأمر إلى أهله فارتقب رحمة الله 76

الجزائر بين كفي عفريت، ولكن الله سلَّم 84

عن أي أزمَةٍ تتحدثون؟ 91

حتى لا تنفجر القنبلة في قلب الجزائر 96

ما الذي يقع في غرداية؟ 99

هل سنبقى مكتوفي الأيدي؟ مقتل أبناء لنا في
عين الدفلة 104
فتنة اليمن وأخواتها: عقيدة واضحة، وقاعدة صادقة . 106
رمضانُ، بأيَّة حال عدتَ يا رمضانُ؟! 110
عيدكم وعيدنا... ضمير العيد، إذا كان لعيدنا «ضمير» . 114
مفارقة الحضور والغياب (في وسائل التواصل
الاجتماعي) 119
القرعجة 121
حديث المغازل وحديث المهازل 125
ماذا نستفيد من هستيريا «ترامب»؟ 128
ترامب «إمام عادل»، أو «شيطان رجيم» ماذا بعد؟ . . 134
الخيرية رهينة بصفاتها 138
وسام العالم الجزائري في عامه العاشر: قُبلةٌ على جبين
الجزائر 141
في فن التربية 150
الفكر التربوي الصيني من منظور نموذج الرشد . . . 151
المدرسة والمستعمر 165
بنيَّ، سمعتُك... فهلاَّ سمعتني؟! 173
محاورة فلسفية، حول القراءة والتأمل... عن ميشال
أونفراي 177
لنترك البراءة تتنفس جرعات من الأمل 183

رحمك الله يا كريمة، ابنة الفخَّار 185
المدرسة بين الانتقاء والارتقاء: المدارس العلمية عينة ونموذجا 190
تلة الرماة، المرتقى الصعب 198
الحوت الأزرق: من هو المجرم ومن الضحية؟ . . . 202
قصتان... 210
ملحمة جزائريٍّ قايضَ جميع مالِه مقابل سماع الأذان . 211
زينب نسيبة امرأة نيجرية مسلمة استأنست بالذئاب، واستوحشت من بني البشر 221
فهارس علمية 227
فهرس المصطلحات والمفاهيم 227
فهرس الأعلام 231
فهرس الكتب 235
ثَبَتُ القواعد الكلية 237
ثَبَتُ الأسئلة والإشكالات 238

المخانق والمضايق

بسم الله الرحمن الرحيم

المخانق والمضايق
«بديلا عن المقدمة»

تردد في أدبيات «نموذج الرشد»، من أوِّل يوم، مقولة تحولت بمرور الزمن وتكشف الخبرات إلى شعار يتجاوز مجرد الاستشهاد إلى الاعتماد، وهو مقولة: «لعن الله ضيق الأفق».

ثم جاءت «نظرية الوعاء الحضاري» متوخية التخفيف من حدَّة هذا المعنى، لتبين وتدلل على أنَّ «الإنسان ابن بيئته»، وأنَّ من يولد في «قرية أو دشرة» ويمارس فيها حركيته، ليس كمن يولد في مدينة أو حاضرة؛ ومن ثم فإنَّ «الأفق، والأثر، والتابع، والامتداد المكاني والزماني»، كلُّ ذلك يختلف من سياق لآخر، ومن زمن لآخر، ومن ظروف لأخرى.

وليس الإنسان بقادر على تغيير وجهة البحر، ولكنه يملك التأثير في صناعة «نقاط الانعطاف» داخل الأمواج؛

حتى إذا كثرت وتراكمت نقاط الانعطاف فعلت فعلتها في حركة التاريخ، ولعلَّ مفهوم «جناح الفراشة» في «نظرية الشواش» خير صورة إدراكية في كون «الفروق الصغيرة في الحالة الأولى لنظام متحرك/ ديناميكي قد ينتج عنها في المدى البعيد فروقاتٌ كبيرة في تصرفات وسلوكيات هذا النظام»،

ولا ريب أنَّ «كامل النظام» هو من قبيل القدَر الذي كتب على الإنسان، وهو ليس مخيَّرا في أن يولد في هذا البلد أو ذاك، أو في هذا الزمن أو ذاك؛ وإنما قد منحه الله تعالى القدرةَ، والعزم، والإرادة، والقوة، والفهم... كي يؤثر في «التفاصيل اليومية» التي هي تحت تصرفه، وفي الأسباب القريبة التي يملك التحكم فيها.

حين خرج طالوت بجنوده، وفصل بهم، لم يكن النهر الذي يقطعونه مما يملكون فيه خيارا، فهو امتحان من الله، وقدرٌ حكيم، واختبار لهم عادل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾[البقرة: 249]؛ وكذا نوع الاختبار: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ... وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾[البقرة: 249]، هذا قضاء من الله تعالى، لا يملكون أن يقبلوه أو يرفضوه؛ لكنَّ «النقطة» التي لهم عليها سيطرة، أي نقطة الارتكاز التي تقع تحت إرادتهم وتصرفهم هي ما يقع في

ظل إرادتهم وفعلهم المخيّر؛ فكلٌّ منهم يستطيع أن يشرب، كما يستطيع أن لا يشرب؛ وكلٌّ منهم سيختار مقامه ومصيره: هل سيصحب طالوت أم لا يصحبه، سيكون منه أو لا يكون.

ويحكي لنا القرآن الحكيم أنَّ الذين لم يطعموا ماء النهر، وصبروا على الامتحان، انخرطوا في عداد المؤمنين ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾[البقرة: 249]؛ ثم توالت الاختبارات وتواصلت، وميز الله تعالى الخبيث من الطيب، الذين يظنون أنهم ملاقو الله تعالى، والذين لهم شك وريب في ذلك.

المهم أننا اليوم، جميعا، نقطع نهرا هيجانه معقَّد، منبعه غامض، مصبه لغز، تقلُّبه لا يحسب له حساب، خطورته غير مقدَّرة بمقدار، فهمُ منطق حركتِه يندُّ عن العقل البشري المفرد... أمواجٌ متلاطمة من فتن هنا، ومن ضعف هناك، ومن غلبة وقهر هنالك؛ ومع ذلك، وجب علينا أن نقطعه، وأن لا نشرب منه، وأن نصبر على بعض شهواتنا لنملك زمام إيماننا، وأن نكون مع طالوت لا ضدَّه، مع الحقِّ لا متنكِّرين له... نفعل جميعَ ذلك، وليس لدينا يقينٌ في نصر، ولا وحيٌ يسندنا، ولا نبيٌّ يوجهنا، ولا معجزاتٌ تقوِّم اعوجاجنا...

الذي نملكه هو عقلٌ، نغوص به في أعماق وحي الله تعالى، وهديٌ من رسوله الحبيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ... عقلٌ نقيس به، نحلل ونقارن، نجتهد ونصيب، ثم نجتهد ونخطئ... ليس في مجرد الفهم اللفظيِّ لما بين أيدينا، ولكن لامتلاك ناصية تفعيل ما نفهَم، وإنزاله إلى أرضيتنا، إلى نهرنا، إلى قرارة قلوبنا... أي نحن مطالَبون لا بمجرد الحفظ والترديد، ولكن بالوعي، والاستيعاب، والإدراك السديد، والصبر على التفعيل وعلى التشغيل، وعلى بلوغ المقصد أو عدم بلوغه...

لكنَّ ذات العقل إذا ترعرع في «جُحر»، ونبت تحت «بيت بلاستيكي»، وعاش في بستان مغلق ضيِّق، ورسم حدود حركته بين جدران قريته، أو على أنقاض أوراق مذهبه، أو على سياط قرارات حزبه، أو داخل جماعة منفصلة عن الزمان وعن المكان، أو بين تجمُّع لا يعرف التفكير ولا العمل خارج «الأنا» الجماعي الموهِم... ذات العقل لو فعل، فإنه يصير رهينة «مخانق ومضايق»:

مخانق تقبض أنفاسه، وتملك عليه أمره، وتمنعه من البوح عن مكنونات صدره؛

ومضايق تكلِّس عظامه، وتعيق خطوه، وتوهمه أنه يمشي لأنه يعرَق، لكنه مشي كمشي الحالم والمصاب بأضغاث الأحلام...

ونحن نمارس رياضة «توسيع التنفس» مجتمَعيًّا وفكريًّا، وحضاريًّا وحركيًّا... ونحن نحمِل أنفسنا على اكتساب «ملَكات الحركة الرياضية الخفيفة»، نجد أجسادنا وعقولنا وقلوبنا وجميع وارداتنا «مخلِدة إلى الأرض»، مدعوة لأن «تقعد مع القاعدين»، وأن ترتاح بـ «الانتساب» إلى حدود ضيقة؛ فندور مثل حمار الرحى، مغلق العينين، نعَم هو يدرس السنابل أو يخرج الماء من البئر، ولكنه لا يزيد خطوة إلى الأمام، ولا يضيف إلى إرادته شروَ نقير، فهو عبدٌ لا حرٌّ، فيه شركاء متشاكسون: هل يستوي هو ومن أسلم وجهه إلى واحد أحد، هو الله تعالى؟

أكتب هذه الأسطر وأنا أضمر الكثير من الأسى، من رجال جبال أعرفهم، مارسوا الجهاد والاجتهاد طول عمرهم، ضمن سياق كانوا متوهمين أنه مفتوح، لكنه للأسف بدا مع طول الزمن أنه مسدود؛ أو أنه كان ذات يوم في عنفوان شبابه، كامل القوى كامل القوام؛ ثم شاخ وتقوس ظهره وفقد القدرة على النظر بعيدا... المهم، أنَّ مثل هؤلاء تحولوا إلى «كتل من الإحساس بفقدان المعنى»، وبأنهم خدعوا، أو أنهم أساؤوا الاختيار، وهم مع ذلك، في مثل هذا العمر المتقدم، لا يقدرون على تحويل الوجهة، ولا على

إعلان الانعتاق، ولا على التفكير في البديل... إنهم ينتظرون شيئا... معجزة... أو كارثة... أو أن تقع السماء عليهم وعلى من حولهم، لتعيد ترتيب الأشياء، وتعيد المياه إلى مجاريها...

أكتب هذا، وأنا أرمق في وجوه بعض من علية القوم، وعلى وجوههم قترة، وسواد، وحزن قاتل، وصفحة من التاريخ تلونت زرقة أو حمرة قاتمة... وكلماتهم مثقلة بالشعور بالذنب، أو بتأنيب خفي للضمير، أو هي لاهبة حنقا وغيظا على من تسبب فيما هم فيه من عزلة... ولو شئت لسمّيت، ولو أردت لذكرت أمثلة لا تخطئها العين... ممن جلست إليه وسمعت منه، أو قرأت له، أو قرأت عنه... وبخاصة ممن كان في مقتبل العمر شعلة من نشاط، ثم كان آخر العمر رهين المحابس، فاق في أساه الأُحَيمِر السعدي، الذي كتب يوما:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوّت إنسان فكدت أطير

يرى الله أني للأنيس لكاره

وتبغضهم لي مقلة وضمير

أذكر أني كنت أستمع إلى حصة تلفزيونية حول

شاعر جزائري، عايش الثورة، وغنى وطنه، ثم لقي العنت بعد الاستقلال، ولم يعرف له قدر؛ وهو إلى اليوم لأكثر من خمس سنين لا يغادر عتبة بيته، سجينا حزينا، فضل العزلة وتنكر للدنيا... ومثله في قاموس الشخصيات كثير؛ ولكنهم غالبا هم ضحايا «ضيق الأفق»، هم عصارة «المخانق والمضايق»، سواء من قبلهم هم، أو بسبب من السياق الذي مارسوا فيه قدرَهم، أو بمزيج من هذا وذاك... ولمن شاء أن يقرأ حزمة من الأمثلة على ذلك، أوجهه إلى كتاب «الوزير الجزائري» لناصر جابي، وفيه يحاور مائة وثلاثين وزيرا جزائريا سابقا في الغالب؛ وهو يسطر مشاهد درامية محزنة، لمن كان ملء الدنيا ذكرا، ثم تحول - على الأقل في تصوره - إلى «نافية ذليلة» أو «خِرقة بالية»، ينسب إليه كلُّ شر، ويسلب منه كلّ خير... باختصار، يصدق فيه قول المثل السائر، ويروى عن الإمام علي كرم الله وجهه: «إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره. وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه».

ولم أجد أبلغ تصوير لهذه الحال، من الوقوع بين مخالب العزلة، وبين أنياب «المخانق والمضايق»، من قول الرسول الحكيم، عليه أفضل الصلاة والتسليم:

«**ارحموا عزيز قوم ذل**»، وفي رواية «**ارحموا من الناس ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالمًا ضاع بين الجهال**»، والحديث وإن ضعفه علماء الحديث، إلا أننا نعتمده أثرا، ونعتبر المعنى قويا، معززا بروح الإسلام في النظر إلى مواطن الضعف التي يقع فيها الناس، والتنبيه إلى وجوب الرحمة فيها.

ابن عالم كبير، ودبلوماسي سابق، وموظف للدولة مرموق... في أواخر عمره، كان يستجدي عبر الصحف، وهو لا يملك المال الكافي للمداواة، وأكثر ما أثر فيه، ازورار من كان إلى جواره عنه؛ لأن ساعة المصلحة قد انتهت، وحان وقت الحاجة إلى الناس... وليس أسوء من صورته، وهو طريح الفراش، وكلمات المناشدة بالإعانة ترافق المقال، أو التقرير الصحفي عنه... ثم، بعد أمد، مات حنقا وغيظا.

وعالم كبير، له مؤلفات معتبرة في تاريخ الجزائر؛ حين انتهت صلاحيته، أرسل إلى بلد عربي، وعين سفيرا بها لمدة عامين، تمهيدا لعزله من تيار السلطة؛ وكان في هذا البلد مكلفا باستقبال عائلات مسؤولين مرموقين، وحمل حقائبهم، والتملق لهم... كل يحافظ على منصبه.

ومعلم في مدرسة جنوب الجزائر، لأربعين عاما

كاملة، من يوم كانت مزدهرة، إلى أن انطفأت جذوتها، وترنحت مع المترنحين؛ أخرج من المدرسة من النافذة، أو من الباب الخلفي؛ ولم يسمح له بالدخول إلى المدرسة ولو زائرا؛ وكان يمر أمام المدرسة التي كان يوما ما أسدا هصورا بها، وصانع مجدها وشهرتها، صار لا يقدر على اقتحام عتباتها، ولا على أن يشم ريحها الطيب الزكي...

سئل الإمام البشير الإبراهيمي حين كان في القاهرة، عن ترشيح الإمام بيوض إبراهيم لانتخابات البرلمان، وطلب رأيه في ذلك، فأجاب كعادته، ببلاغة وبيان: «جبل غطيتم به ثقبا»... نعم، حين أقرأ الصراع المتكلف الذي حمل إليه القطب اطفيش حملا، في قضية «الصلاة على النبي»، وما أسالت من حبر، وما أثارت من قلاقل، حتى إنه قال عنها يوما ما: «أظن أن الشيطان الأكبر تدخل فيها بنفسه، ولم يوكل المهمة لنوابه» (بتصرف)... حين أقرأ حيثيات هذا الصراع، أقول: كم من جبل أذبنا، وكم من طاقة عطلنا، وكم من عالم اغتلنا...؟!

يا الله من قوم عطلوا مفاهيم ومعاني آيات قرآنية عميقة، وأحاديث نبوية شريفة، فسجنوها في دلالات تقليدية رتيبة؛ فحديث رسول الله عليهم السلام، لم

يترك لمعلق مجالا، ولا لقائل فرصة، وقد وعى وأوعى في خورة ضيق الأفق، وفي كارثة المخانق والمضايق، وهو يفهمنا كيف يذهب العلم، ويقول بصيغة النفي، لينزع من عقولنا المعنى السلبي الوارد عادة، فيقول: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»... وقبض العالم لا يعني موته الجسدي بالضرورة، ذلك أننا غالبا ما نستشهد بهذا الحديث الشريف في هذا السياق؛ وإنما يقبض العالم «بعزلته»، وبالتضييق عليه، وعلى فكره، وبأن يحشر مع الجهال، ومع غير أهله... فهو لا يفهمهم، وهم لا يفهمونه... أو هو رهين حاجته المادية إلى أسافل الناس وأراذل القوم؛ فلا يعطونه إلا إذا أذلوه... حكاما كانوا، أو أثرياء... إلا من رحم الله.

كان أستاذي الذي أعتز به ولا أنساه أبد الدهر، الأستاذ عبد الله كنطابلي رحمه الله تعالى، مثالا للرجل الذي رفض أن يستسلم لضغط الواقع، وأن يهين كرامته لمكاسب ظرفية آنية ضيقة؛ كان عزيزا على فقر، كريما على مرض، وقد كان دائما يتمثل قول الشاعر الكبير، القاضي والمفسر والمؤرخ: أبو الحسن

الجرجاني، ويدفعنا إلى أن نحفظ هذه الأبيات، وأن نستوعب معانيها العميقة، التي عايشها في يومياته، وليس بالنسبة له مجرد نص أدبي بارد:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما
رأوا رجلًا عن موقفِ الذلِّ أحجما
أرى الناسَ من داناهُم هان عندهم
ومن أكرَمته عزةُ النفسِ أكرِما
ولم أقضِ حَقَّ العلمِ إن كان كُلَّمَا
بدا طَمَعٌ صَيَّرتُه لي سُلَّما
وما زلتُ مُنحازًا بعرضيَ جانبًا
من الذلِّ أعتدُّ الصيانةَ مَغنما

أذكر يوم كان بعض الناس في لبوس من الجهل ينعتونه بأبشع النعوت، والبعض منهم يناظره ويخبر أعصابه، فهو الفيلسوف، اللغوي، الأديب، صاحب القراءات، والمتقن لخمس لغات... تجد ممن لا يحسن النطق، ولا يقدر على بناء فكرة مستقيمة، ولا يفرق بين القاع والباع... تجد من هؤلاء من يجرأ عليه، ويقول له كلاما يغضبه، حتى إنه كان دائم التكرار لمقولة الحكيم: «إذا أردت أن تُفحم عالما، فسلط

عليه جاهلا».

ويعجبني الشيخ عبد الفتاح مورو، الذي وجه قول سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة النمل عن الهدهد الغائب: «لأعذبنه»؛ وجهه خلافا لتفسير البعض بأنه ينزع منقاره، أو يقلع ريشه... قال، أعتقد أنَّ معنى العذاب الشديد هو أن يحشره مع غير جنسه، وقال: «الحشر مع غير الجنس عذاب، والعالم إذا أردت أن يمعن في عذابه، احشره مع رجال لا حياء ولا خلق لهم».

الفقه بين مجتهد ومبتدئ ومغرور

يقول القطب اطفيش في مقدمة «شامل الأصل والفرع»: «وبعد، فهذا كتاب وضعته للمبتدئ، يشمل أصولا وفروعا، وليس فضله عن المتوسط والمتناهي ممنوعا».

أعيد مطالعة الشامل، وهو من آخر ما ألف القطب، وأنا مدفوع بالكتابة عن «منهج الاستدلال والمقارنة والترجيح، والاجتهاد الأصولي والفقهي» عند قطب الأيمة، من خلال الشامل بخاصة؛ ذلك أنه صرح فيه ببلوغه درجة الاجتهاد، وأنه تحرر من تبعات التقليد، وانطلق في الكتابة بروح منفتحة غير مقيدة بضرورات الانتماء؛ فأسس لنفسه مذهبا ومدرسة متميزة، أبرزُ خصائصها التيسير، واعتبار الواقع، وعدم التشدد على رأي ما دام ثمة رأي آخر.

فمثلا، يذهب إلى أنَّ الصلاة لا يقطعها مرور شيء أو أحد، وينقل عن ابن محبوب قوله: «ليست الصلاة حبلا ممدودا، إنما تعرج إلى السماء فيصلها برُّ القلب، ويقطعها فجوره» ويستشهد بحديث: «لا يقطع الصلاة

شيء، فادرؤوا ما استطعتم».

يؤلمني صنفان من الناس:

• طالب علمٍ، ليس له من الأصول ولا من الفروع شيء، خالي الوفاض، مهزوز الفؤاد، لم يجلس يوما لمصدر، ولم يصبر هنيهة للاغتراف من أصول العلم... ثم تراه، مع ذلك، يحشر أنفه في كل شيء، ويفتي للناس بلا أثرة من علم، والناس يحسنون الظن فيه، فيضل ويضلون على إثره.

• رجل تحمَّل مهمة الوعظ، ولبس لباس الدين التقليدي، بأي شكل من أشكاله، وترأس المجالس، فأصدر بيانات لا تمت إلى الحكم الشرعي بصلة، وهو إلى الجهل أقرب، لو صنِّف لما تجاوز مرحلة «المبتدئين»، بل قد يكون جاهلا بحق، وهو مع ذلك لا يبذل جهدا، ولا يتواضع لعلم، ولا يعترف بقصوره ولا تقصيره... قتله الغرور، وأغوته الجهالة...

ولكن الأسوء من ذلك، أن نبرر لهؤلاء، ونوجد لهم الأعذار، والحق أن لا عذر لهم عند الله، ولا عند الناس...

ولو شئت لمثلت...

فهلا اعتبرنا؟ وهلا غيرنا من هذه الحال؟ وهلا ارعوينا؟

اللحية بين المستهتر والمتعصب

اللحية في وجه الرجل المسلم لها أكثر من دلالة؛ فمن الناس من هو مستهتر بحكمها، مستحلٌّ لحلقها بلا علم، كاره لها ولمن التحى من إخوانه على غير وجه حقٍّ؛ ومن الناس من يتعصب في حكمها، ويذهب إلى حدِّ تكفير حالق اللحية أو مقصرها، ويتعمد الحكم عليه بأحكام تخرجه من الدين... ما بين هذا وذاك، تبقى اللحية لغة معبرة، وشعارا بارزا فاضحا للبواطن، وللانتماءات، والخيارات.

وأمثل الناس إيمانا منْ صدر عن علم، فلم يستهتر ولم يتعصب، ولكن أخذ الحكم معتبرا مقاصد الشرع الحكيم، مستجيبا لله تعالى وللرسول ﷺ.

وفي هذا الخضم من الخلاف، لا بد من التنبيه إلى ما يلي:

- ليحذر الواحد منا استحلال الذنب، والاستهتار بالسنة، فإنَّ الاستحلال بإجماع العلماء معصية وكبيرة مخلدة في النار.

• أجاز ثلة من العلماء الأخذ من عرض اللحية ومن طولها، فمقصد المنظر الحسن معتبرٌ في شريعتنا، وترك اللحية في صورة مشوهة مع الشاربين، مما لا يليق شرعا وعقلا.

• «لا تترك ولاية من قص لحيته، ولا تردُّ شهادته» هذا اختيار القطب في الشامل؛ وبهذا يرتفع الحرج في العلاقة بالمسلم الحالق لحيته، لا يعنف ولا يتبرأ منه، بل يعامل معاملة المسلم للمسلم.

• أن من حكى نكتة، أو صور كاريكاتورا، أو ألقى حكما، يستهزئ فيه بالسمت الإسلامي، مثل اللحية أو الحجاب أو غيره، فقد أتى بهتانا عظيما.

• ضابط الكبيرة الذي عليه الكثير من العلماء «أنها ما ورد بخصوصه وعيد بنص الكتاب والسنة، فخرج بالخصوص ما اندرج تحت عموم، فلا يكفي النصُّ العام في كونه كبيرة» وحلق اللحية لم يرد فيه وعيد أو لعن صريح؛ غير أنَّ الذي يُخاف منه هو الإصرار عليها، أو التقليل من شأن المعصية، أو استحلال الحرام بغير علم؛ فإن هذه المعاصي جميعها من الكبائر.

فحوى كلام القطب أنه لا يتبرأ من فاعلها وأنها

ليست كبيرة.

• أن من جعل اللحية محلا للتلاعب، بأن يشوهها أو يرسم بها على وجهه صورة قبيحة، أو يجعلها مثل خريطة على وجهه، اقتداء بلاعب أو مغن أو نجم من النجوم، فقد اقترف إثما عظيما بتشبهه بالكافر، والأحاديث مستفيضة في تحريم التشبه بالكفار.

• حرص المسلمين على السمت من شعائر الإسلام، ومن أبرز صور عزتهم وكرامتهم، ولذا وجب أن يصلوا إلى ما يرضي الله تعالى، ويحقق لهم الصورة الحسنة المثالية غير المنفرة؛ ولا شك أن وسائل الإعلام، ورمزية النجوم في الرياضة وغيرها، كل ذلك يعمل على تشويه سمت المسلم، فيحول ما هو حرام حلالا، وما هو حلال حراما، ولا يعتبر مرجعية الشرع في ذلك.

وهذا المجال، أي سمت المسلم ذكرا وأنثى، من أبرز حقول الاجتهاد في هذا العصر، ومن أكثر صور التدافع وعورة وخطورة. ولذا، قد لا يكفي فيه الحكم الشرعي، ولكن يستدعي الاجتهاد في الفن، والصناعة، والإعلام، وجميع وسائل الإقناع والنصرة.

ملاحظة: يجب أن نعلم أن ثمة من علماء المسلمين من يفتي بأن حلق اللحية كبيرة، وثمة من جهة أخرى

من يفتي أنَّ حلقها مكروه وليس حراما؛ ولذا لا يجوز الاستعجال في تخطئة الآراء الفقهية الأخرى، ولا الجدل العقيم حولها؛ مما قد يؤول إلى حرام بيِّن أشدَّ منه.

ليس مجرد سؤال... أعتذر إليك يا رسول الله!

كنت منهمكا في فهم أبعاد «سورة الحشر»، وفي البحث عن الأوامر التوحيدية والفقهية، والقواعد الفكرية والحضارية بنية العمل بها وتمثُّلها؛ وهي السورة التي برز فيها رسول الله ﷺ قائدًا ملهَما، وقد أجلى يهود بني النضير إلى خيبر، بسبب خيانتهم العظمى، ونقضهم العهد والميثاق الغليظ... فوضَعَتْ ورقةً من الحجم الكبير أمام ناظري، وقالت:

هذه أسئلة من المدرسة القرآنية، حول المولد النبوي...

ثم أضافت:

أريد أن أجيب، وأن أنال الرتبة الأولى، وجائزةَ الاستحقاق، فهلاَّ ساعدتني؟

* * *

لا تُتعب فكرك أخي في البحث عنها، فاسمها «لينة»، هي البنتُ المدللة؛ وسورة الحشر مصدر التسمية:

«**ما قطعتم من لينة...**»؛ ولقد تلاقى الاسم والحدث، والعبرة والمقصد، فوُلِد المبنى والمعنى ما بين السورة والبنت.

غير أنَّ الذي استوقفني هو هذا السؤال المسطَّر على ورقتها؛ إنه ليس مجرد سؤال:

ماذا لو التقيتَ برسول الله ﷺ؟

وفي أوَّل نظرة منك إليه، ماذا ستقول له؟

* * *

ومن عجب أنَّ «يمنى» البنتُ الكبرى العزيزةُ، قبل أيام، رأت رسول الله ﷺ في المنام، وكأنَّ الوقت وقت قيام الساعة، والناس في أمر مريج؛ رأيته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين الناس، في الشارع، يطمئن مَن حوله، والجميع يحوم به ويحتمي إليه (أمتي... أمتي).

فلمَّا سألتها أمُّها:

ماذا قلت له؟

وماذا كان الناس يقولون؟

قالت: بُهت الناس، وصَمتوا، وفزعوا... كأنَّ على رؤوسهم الطير.

* * *

عدت بالسؤال إلى نفسي، وقلت:

لو لقيتُ الحبيب محمدا ﷺ الساعةَ، ماذا أقول له، وكيف أفاتحه بالكلام؟

ثم أجريت على الذاكرة قائمةً من المفردات، ومن العبارات، التي ألف الناس أن يقولوها في حقه عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ والتي ألفتُ أنا أن أرددها على إثرهم؛ وكنتُ كلَّما استحضرت كلمة أو معنى سألت نفسي:

ماذا لو سألني ﷺ عن ثمرة ما قلتُ وما مؤداه؟

ترى، كيف سأجيب؟

وهل أستطيع أن أصدُقه وأقول له الحقيقة: «لا شيء إلاَّ الحقيقة»؟

* * *

أأقول له: **أحبُّك يا رسول الله**؟

هل حقًّا أحبُّه مثل الحبِّ الذي أحبَّه به صحابته عليهم السلام: أبو بكر، وعمر، وعلي، وعائشة، وزينب؟ ومَن بعدهم من الهداة المهتدين؟

أم أنَّ ادعائي الحبَّ ما هو إلاَّ مجرد ألفاظ تقال وتكال؛ ثم لا شيء من نتائج وتبعات ذلك الحبِّ للأسف؟.

المحبُّ يهيم في محبوبه، فيصاب بالسَّقام، وقد يهلك في طلابه؛ ويستقلُّ كلَّ مصاب لأجله، ويركب الصعاب في دِراكه...

المحبُّ لا يرضى أن يُنال محبوبه بشوكة أو أقلَّ منها؛ يفرح لفرحه، ويغضب لغضبه؛ ولا يرفع صوته فوق صوته، ولا يردُّ له أمرا، ولا يعتذر إليه إذا ما دعاه، ولا يتخلف عنه إذا ما ناداه...

المحبُّ لا يملُّ من ترديد اسم محبوبه، يهشُّ ويبشُّ إذا سمع عنه شيئا مفرحا، فلا يكاد يخفي تأثره؛ وقد تسيح الدموع من وجنتيه شوقا إليه، ولقد تبيضُّ عيناه حزنا لفراقه...

المحبُّ يسترخص الموت إذا كانت نهايته جوارَ محبوبه، بل إذا كان كل مصيره نظرةً واحدة إلى جمال حبيبه...

هي صفات ملازمة للحبِّ، فإن هي لم تتحقَّق، كان صاحبُها كاذبا أفَّاكا، وإن هي اختلت - قيد أنملة - حقَّ لنا أن نسمِّيه دعيًّا أثيمًا... تُرى هل تحقَّقت هذه الصفات فيَ أنا؟

ماذا لو سمع مني عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلمة: «أحبك، يا رسول الله»، فقال:

ما هو دليلك، وما هي حجَّتك، وأين بيانك؟

ماذا لو سرد عليَّ جملةً من حماقاتي ومخالفاتي وذنوبي، التي عاينها فيَ، أو أخبره الله تعالى بها عني، وهو يكشف سريرتي له، فداه أبي وأمِّي؟

❋ ❋ ❋

أأقول له: **رضي الله عنك يا رسول الله، وصلى الله عليك وسلم تسليما؟**

ماذا لو سألني:

الله تعالى رضي عني، وصلَّت الملائكة عليَّ، وجميع الخلائق يعرفون قدري ويعترفون بي فيصلُّون ولا يملُّون؛ فما بالك أنت لم تفعل ذلك إلاَّ نادرا، ولم تلازم الصلاة عليَّ كما أمرك ربي في كتابه الحكيم إلاَّ لماما، ولم تبلغ مقام ما أمرتك به في حديثي الذي بلغك عني إلا قليلا؟

ثم، هل قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾؟

ولقد أجيبُ باستعجال: نعم، يا رسول الله، والعرَق يتصبَّب من جبيني حياء وخجلا...

ويعاود عَلَيْهِ السَّلَامُ السؤال:

وهل سمعتَ - يا هذا - ما قلتُ لك ولمن معك؟ أوَلم أقل لكم صادقا غير مكذَّب: «**من ذكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ فقد شقي...**»، «**ومن صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشرا**»؟

ولقد أسارع إلى الجواب، وأنا في أمر مريج، فأقول له مرتجفًا: سمعته يا رسول الله، وحفظته في مدرستي القريبة من يوم أن كنت صغيرا.

فيسألني في حلمٍ، وعظيمِ خلقٍ، بصوت نديٍّ:

وماذا فعلتَ بهذا الأمر؟

ثم، أولم تصلِّ عليَّ بلسانك فقط، وقلبك حينها كان هائما في حبٍّ آخَر: زوجك، مالك، وطنك، لاعبا للكرة، ممثلا، سفيها من السفهاء، تجارتك، حزبك، منصبك، شاشتك، شهرتك...؟

وهل صليت عليَّ بجوارحك، بأن تمثلتَ خُلقي، وعملت بما أمرتك به، وانتهيت عمَّا نهيتك عنه؟

* * *

بلغت القلوبُ الحناجر، ورسول الأنام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعاود السؤال كرة أخرى:

وهلا فهمت قول ربي الكريم سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ

ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾؟ فهل يصدق فيك أنك اتبعتني؟ أم أنك أحيانا على السكَّة وحسنِ المسير، وغالبا خارج السَّكة، تهيم وتسرح بلا نصير؟

* * *

لقد هممتُ أن أواصل سرد كلمات وعبارات، أتمرَّن عليها فأقولَها لرسول الله ﷺ حين ألقاه؛ فعُقِد لساني، وانقبض قلبي، وضاعت المعاني مِن صفحة فؤادي...

فجأةً خرصتُ وصمتتُ...

خرصتُ وأنا الغارق في بحر من الندامة على ما بدر مني...

صمتتُ وأنا السابح في محيط من الأمل أن أستدرك ما فات عني... ما دامت الفرصة مواتيةً؛ لعلي أبلغ شاطئ الأمان ولا أغرق، رجاء أن أصل إلى الوجهة ولا تتقطع بي الأنفاس، بل دعاءً لله سبحانه، الذي لا يرد من دعاه، دعاءً لله أن يمدني بالوجه الذي ألقى به الحبيب محمدا، ولا أعدم ما أقول له يومها...

هممتُ، وأطرقت، وبكيت، ثم كفكفت الدمع عن عيني، وقلت:

معذرة إليك، يا رسول الله...

إنه ليس مجرد سؤال، أعتذر إليك يا رسول الله...

ملاحظة أخي وأختي، هذا عن لقاء رسول الله ﷺ، ونحن على أبواب المولد الشريف؛ ولكن ماذا حين أقفُ - تقف، تقفين، نقف جميعا - أمام ربِّ العزة، في مثل هذا الموقف الحرج: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْئُولُونَ﴾؟

من العربي القذر إلى المسلم المتحضِّر (فقدان الذاكرة الكولونيالية)

كتب فيكتور هيجو عام 1869: «إفريقيا المحتضرة تلفظ أنفاسها بين مخالبنا: هنا شعبٌ يحشرج بأكمله طالبا الطعام، جوعٌ في وهران، وجوعٌ في الجزائر. هذا ما تفعله بنا فرنسا البهية».

أحيانا ينتابني شعور، وأنا أناقش بعض الناس، أو أقرأ لبعض الكتَّاب، أنهم فقدوا ذاكرتهم كليَّة، أو أنهم على أقلِّ تقدير أصيبوا بثقوب في الذاكرة، جعلتهم يُلغون «التاريخ الاستعماري للجزائر» من حسابهم، ومن معطياتهم التحليلية؛ وللأسف قد يصدر قول أو رأي من مشتغل بالثقافة تفوح منه هذه الرائحة المنتة.

قرنٌ وثلث القرن من الاستعمار، لم ولن تكون هينة أبدًا، ذلك أنَّ «النسيج الحضاري» لأمة كاملة عُمل على تفتيته، وأزهقت أرواح الملايين من البشر بوحشية لم يسجل التاريخ لها مثيلا، ولقد عرض أحد الكتاب لنماذج في كتابه «تاريخ التعذيب في الجزائر»، ثم فقد كتابه من المكتبة العامة ككل عمل جاد واع؛ ثم

بعد ذلك كان الأهمُّ أنَّ صفة «الحيوانية والوحشية» هي التي ألصقت بالإنسان المسلم الجزائري؛ فهو ليس أهلا أن يعيش أو يتحضر، «ولذا كان لزاما علينا أن نحضّره بكلِّ السبل والوسائل».

وعبارة «العربي القذر» (sale arabe) صُنعت بعناية، وهي استعارة قوية عن «ضرورة إزالة القذارة»، وأنَّ قائلها «طاهرٌ نظيف» يجب عليه أن يتقزز وينفر من القذر بغض النظر عن حقيقته، وعن مكانته، وعن كرامته. ففي منطقة «سان جون جو برايان» بمحافظ «أرليون»، في فرنسا، ثلاث نساء مسلمات فرنسيات، من أصول عربية، تعرضن للاعتداء المبرح، من قبل سائق طاكسي، وهو يردد عبارة: «أكره العرب، أكره ديانتكم... أيها العرب القذرين».

ولا ريب أنَّ «الهستيريا الإعلامية» هي التي تكالبت على صنع هذه الصورة، ولكن ليس العجب من سائق طاكسي فرنسي، أن يكون بهذا الحجم من الحقد، وإنما من مواطن عربي، من بلد إسلامي، تسمعه وهو يصرخ بعبارة: (sale arabe) مخرجا نفسه من زمرتهم، معتقدا أنَّه هو ليس مصنفا ضمنهم.

ولا يعنيني في شيء أن أدعو إلى ردٍّ، أو استنكار، أو حتى قلق في هذا الشأن؛ ولكن يعنيني أن لا نفقد

الذاكرة، وأن نعمل على صناعة الوعي بوعي، وأن نكون حذرين يقظين، وأن لا يستخفَّنا الآخَرون، بل ولا يستفزُّونا فنقوم فرادى أو جماعات بردَّات الفعل، التي لا تضاف إلاَّ إلى حسابهم.

وأحسب أنَّ «المتنكر» و«العنيف» و«اللامبالي» جميعهم يصنف في خانة واحدة، هي خانة «المنعكس الشرطي»، ولذا يتحولون إلى «جماعات وظيفية» يعمل بها، ثم تحوَّل إلى كباش فداء؛ وحده الواعي، والباحث، والمحلل، والفاعل الإيجابي، يمكنه أن يصنع الفرق، وأن يغير المعادلة، وأن يعيد قاطرة الأمة إلى مسلك الحضارة، بلا ادعاء، ولا تهريج، ولا استغباء.

هي دعوة أخرى للوعي الجمعي، وللبحث العلمي الرصين، ولِسعة الأفق التي باتت واجبا عينيا على كلِّ مسلم ومسلمة.

تنامي ظاهرة التطرف، وانتشار الإسلاموفوبيا

ضمن الملتقى العلمي الذي تنظمه وزارة الشؤون الدينية والأوقاف مشكورة وموفقة، تحت شعار «الوسطية قيمة قرآنية»[1]، تعالج الورقة إشكالية التطرف داخليا، والإسلاموفوبيا في العلاقة بالآخر، نتيجة لغياب الوسطية وتنامي ظاهرة العنف؛ والمقاربة تعتمد منطلقا لها سؤال الأزمة المتمثل في «الانفصام بين الفكر والفعل»، «بين العلم والعمل»، «بين القال والحال»، «بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن».

ويمكن تقسيم الورقة إلى مدخلين معرفيين هما «مدخل المفاهيم»، و«مدخل المراجع والدراسات الحديثة»، بناء على المخطط التالي:

مدخل المفاهيم المفرقية:

1. وكذلك جعلناكم أمة وسطا.

(1) نظمته وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائرية بمناسبة الأسبوع الوطني الثامن عشر للقرآن الكريم، أيام: 26 و27 و28 ربيع الأول 1438هـ الموافق: 26 إلى 28 ديسمبر 2016م.

2. الدليل التاريخي.
3. مفهوم أهل الفترة، وضمان المأمن.
4. حتى يسمع كلام الله.
5. الموقف من الغرب بين الشهود الحضاري وتنامي الإسلاموفوميا.

مدخل المراجع والدراسات الحديثة:

1. نوبوأكي نوتوهارا، **العرب وجهة نظر يابانية** (كارثة القمع وبلوى عدم الشعور بالمسؤولية).
2. ألان غريش، **الإسلام والجمهورية والعالم** (الخوف من الإسلام بديلا عن الشيوعية).
3. أريك لورون، **الوجه المخفي للبترول** (التطرف والبترول ظاهرتان متلازمتان).
4. كلود أسكولوفيتش، **منبوذونا، هؤلاء المسلمون الذين لم تعد فرنسا ترغب فيهم** (مجرمو التطرف وضحاياه).
5. إدوي بلينال، **إلى المسلمين** (تنامي اليمين الأوروبي)
6. إدغار موران وطارق رمضان، **في مهب الأفكار، الأسئلة الكبرى لعصرنا** (الظاهرة الإسلامية ظاهرة مركبة).

7. جيفري لانغ، **ضياع ديني** (ما تكسبه الدعوة يضيع بسبب غياب الوسطية والاعتدال).

مدخل المفاهيم

وكذلك جعلناكم أمة وسطا:

الوسطية قيمة قرآنية ذات معنى وجوديٍّ (**ontological**) إضافة إلى كونها قيمة ذات معنى معرفي (**epistemological**) وليست قيمة حُكمية شرعية تكليفية خالصة؛ فالآية المرجع في تعريف الوسطية جاءت بصيغة وجودية معرفية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾[البقرة: 143].

و«**الجعل**» في المصطلح القرآني هو «توجيه الشيء المخلوق إلى ما خلق له، وهو في الترتيب بعد الخلق». وبهذا المعنى نفهم قوله تعالى مثلا: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[النبأ: 10-11].

وبلغة المنطق نقول: إنَّ الأمَّة المسلمة مرتبطة بالوسطية وجودا وعدما، والوسطية متعلقة بوجود الأمة وجودا وعدما.

ومعنى ذلك أنه إذا غابت الأمة غابت الوسطية من العالم، ومن «الناس» بمنطوق الآية، وإذا حضرت الأمة حضرت الوسطية. والعكس صحيح. أي أنه إذا غابت

الوسطية انتفى وجود الأمَّة، وإذا وجدت الوسطية تحقق وجود الأمة بالضرورة.

فبينهما علاقة تلازم عليٍّ (causal necessity) من وجهين مختلفين: فالوسطية علة لوجود الأمة باعتبار هيبتها وعزتها ومكانتها وتمكنها في سلم الحضارة، والأمة علة لوجود الوسطية باعتبار حال العالَم سلما وحربا، ظلما وجورا.

الدليل التاريخي:

لو اعتمدنا «البرهان بالنقض» في بيان العلاقة التلازمية بين الوسطية والأمة الجزائرية اليومَ؛ لقلنا إنه لو افترض غياب الوسطية من تاريخنا المعاصر، لما كانت الجزائر اليوم مستقلة، ولما استطاعت أن تجتمع على غاية واحدة هي الحرية؛ ولما تناست الخلافات التي بينها وهي في أسوء ظروف القهر والتبعية للمستعمر الفرنسي الغاشم.

والشاهد التاريخي المعاصر يُثبت أنه حين تعالت أصوات الشدة والعنف والإقصاء، أي دعاوى إلغاء الوسطية والتسامح، بحرَ تسعينيات القرن الماضي، من أوساطنا الدينية والفكرية والسياسية، يومَها وضعت الأمة على شفا جرف هار، وعلى فوهة بركان؛ وكادت

تتفتت حينها شرَّ مفتَّت.

والشاهد اليومَ عيان في حال العديد من البلاد الإسلامية، من سورية إلى العراق، ومن مصر إلى ليبيا... ففي تلك البلاد حين خفت صوت الوسطية والقسط وعلا صوت الإقصاء والإلغاء والعنف والشدة، دخلت في دوامة من القتال وسفك الدماء، وصارت لقمة سائغة بين أنياب الذئاب ومخالب النسور.

مفهوم أهل الفترة، وضمان المأمن:

ذكر أهل الفترة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[المائدة: 19].

والفترة هي «الانقطاع بين رسول ورسول»، وأهل الفترة يدخل فيهم «كلُّ من لم تبلغه الدعوة، أو بلغته على حال لا تقوم عليه الحجة بها كالمجنون ونحوه».

رغم أنَّ هذا التعريف نظر إلى شروط مَن بلغته الدعوة، واشترط فيه الأهليةَ كأن لا يكون مجنونا؛ غير أنه تعريف تغيب عنه النظرة إلى حال المبلِّغ، وحال الذي يتمثل الدين، ومنهج عرضه للعقيدة: فهل مَن بلغه دين الله على يد متخلِّفٍ جاهل، متطرِّف عنيف، مكفِّر للناس بالظِّنة... هل من بلغته رسالة الإسلام

على هذه الصورة المشوهة، ولم يلتق بالإسلام في نصاعته وجماله وجلاله، ثم لم يؤمن، هل هو ممن ردَّ الحق وتنكَّر للبشير والنذير؟ أم أنه ردَّ هذا الفساد، ولم يردَّ الحقَّ... فهو إذن من أهل الفترة؟

اقرأ مثلا كتابا بعنوان «ضياع ديني» تأليف العالم المسلم جيفري لانغ.

حتى يسمع كلام الله:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6].

كيف نفهم هذه الآية في ظل الظروف المعاصرة، بعد أن تعيَّن إعادة النظر في حكم الدار: دار الإسلام ودار الكفر، دار السلم ودار الحرب؛ وصارت الدار هي دار الدعوة، ودار الشهادة، ودار الشهود، أو دار العدل؟

روي عن مجاهد في تفسير هذه الآية، قال: «إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله»، فهل يمكننا أن نقرِّر أنَّ الناس اليومَ يسمعون كلام الله كما نزّل، بلغاتهم الكثيرة، وتغير في مدلول اللغة من اللغة المكتوبة إلى الصورة الذهنية والإدراكية، التي هي أبلغ لغة

اليوم... فهل مَن لم يتعرف على الإسلام إلا من خلال «الدماء»، و«الدمار»، و«القتل».... بغض النظر عن حقيقة ما بلغه، هل نعتبره قد استوفى مدة سماع كلام الله، وهل يفقد الأمان؟

إنسان في أطراف أمريكا الجنوبية مثلا، لا يعرف اللغة العربية، لم يسمع عن الإسلام إلا من خلال وسائل الإعلام، وصور القتال في شتى بلاد الإسلام، وأحداث نسبت إلى المسلمين ظلما وزورا في أمريكا وأوروبا؛ ثم لم يسلم، ولم يجد قلبه أدنى خفقان وجهة الإسلام؛ هل نعتبره من أهل الفترة؟ وهل بلغه الحق فردَّه؟ أم أنه ردَّ الظلم والفساد الذي بلغه، لا حقيقة دين الله تعالى؟ وهل استوفى شروط سماع كلام الله تعالى؟

الموقف من الغرب بين الشهود الحضاري وتنامي الإسلاموفوبيا

في كتاب «**سيرة ذاتية وأسئلة لا مفر منها**» لعلي عزت بيجوفيتش، نقرأ هذا النقد لمحمد أسد، من خلال ما ورد في كتابه «**الإسلام على مفترق الطرق**»، عن الغرب والموقف منه؛ يقول علي عزت ناقدا: «إن محمد أسد يبالغ في انتقاده لأوروبا وأمريكا، وعلينا أن نكون حذرين إزاء ملاحظاته الدقيقة، بشكل ضيق

جدا، أنا شخصيا أعتقد أنَّ طبقة رقيقة من المجتمع الغربي فاسدة ومتحللة، وأنَّ الغالبية العظمى من الناس العاديين يدرسون ويعملون بجد ويعيشون من أجل أسرهم». وأضيف أنَّ الغالبية العظمى من العالم غير المسلم ضحية التشويه المتعمد لصورة الإسلام والمسلم: تربويا، وإعلاميا، وسياسيا، وفكريا....

والحق أنَّ ظاهرة غياب الوسطية نسبيا في المجتمع المسلم مردها إلى الاختلاف في الجواب على سؤال العلاقة بالغرب والآخر من جهة، وبالتراث والذات من جهة أخرى.

فالرفض غير المبرر علميا للذات أو للآخر، للتراث أو للواقع، يورث بالضرورة تطرفا وعنفا، ويبعد عما سماه القرآن الكريم العدل والقسط، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة: 8].

مدخل المراجع والدراسات الحديثة

- **نوبوأكي نوتوهارا، العرب وجهة نظر يابانية**

هو كتاب عالج مشكلة أنَّ ما يقرأه في كلام الله تعالى، وفي سنة المصطفى، لا يجده مشخصا في

واقع المسلمين؛ وهو يستنكر لذلك غياب الحرية، وانتشار القمع، وتغلغل الخوف في القلوب وبين ثنايا مفاصل الحياة.

- **ألان غريش، الإسلام والجمهورية والعالم**

يعرض الكاتب لمشكلة «صناعة الخوف» من الإسلام، في الدوائر العلمية والسياسية الغربية؛ مما أدى إلى تنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا، والتوجس من كل ما يأتي من جهة الإسلام والمسلمين؛ بل جعل الإسلام نظاما شموليا عدائيا تماما مثلما كانت عليه الشيوعية، ولذا وجد الغرب المبرر لمحاربته، وأحيانا يساعد المنسوب إلى الإسلام بتطرفه في تثبيت هذه الصورة المشوهة.

- **أريك لورون، الوجه المخفي للبترول**

يثيرنا في الكتاب العلاقة التلازمية بين «العنف والبترول، فحيثما وجد البترول صنع التطرف، وصدر بعناية، لمصالح وأغراض عالمية لا تخفى على أحد؛ ولكن جهل الكثير من المشتغلين بالخطاب الديني جعلهم كذلك يسوقون لهذا الاتجاه، ويعطون المبررات للمخططات الخطيرة.

- **كلود أسكولوفيتش، منبوذونا، هؤلاء**

المسلمون الذين لم تعد فرنسا ترغب فيهم:

كلود أسكولوفيتش (Claude askolovitch) ، صحفيٌّ من أصول يهودية، له كتاب بعنوان «منبوذونا: ـ هؤلاء المسلمون الذين لم تعد فرنسا ترغب فيهم[1]»، نشرُ دار غراسات، باريس، 2013. هذا الكاتب صرح «أنَّ فرنسا باتت لا تحب المسلمين»، وتابع حياةَ الكثير من هؤلاء المنبوذين، في حالات من المضايقة والإقصاء يصعب تصوُّرها، فأجرى تحقيقا مع الكثير من هؤلاء «الفرنسيين بلدا، المسلمين دينا» ممن صار مخيرا بين «الإسلام وفرنسا»، وكأنهما لا يجتمعان ولا يلتقيان.

ولقد اتُّهِم هذا الصحفي الحرُّ في وسائل الإعلام الثقيلة بجميع أنواع التهم، منها عداؤه للسامية، وهو طبعا ساميٌّ. غير أنه استطاع أن يخترق دائرة الصمت ويبيِّن أنَّ ما تعرَّض لهم اليهود بين الحربين العالميتين من اضطهاد، يتعرض له المسلمون اليوم، بلا شفقة ولا رحمة.

- **إدوي بلينال، إلى المسلمين:**

(1) ***Nos Mal-Aimés, Ces musulmans dont la France ne veut pas.***

أدوي بلينال (**Edwy Plenel**) صاحب كتاب بعنوان «**إلى المسلمين**»، من دار «لاديكوفارت»، باريس 2015. وهو يظهر في كتابه أنَّ ثمة مخططا لتشويه صورة الإسلام وصورة المسلمين، وأنَّ التمييز العنصري بات مبرَّرا ومقننا، سواء باسم حرية الرأي في الإعلام، أو باسم الممارسة الديمقراطية في السياسة.

ولقد دافع «أدوي» عن فكرة أنَّ الكثير من الفرنسيين مالوا إلى جهة اليمين المتطرِّف، بخاصَّة تحت مظلة «الجبهة الوطنية الفرنسية». والكاتب يخاطب فرنسا متألما، قائلا: «هل ما تريدينه اليوم هو وضع قيم الحرية والإنسانية والاحترام المتبادل... على مهبِّ الريح»؟

- **إدغار موران وطارق رمضان، في مهب الأفكار، الأسئلة الكبرى لعصرنا**

الكتاب مرجع في المنهج، وبخاصة فيما عرف بتركيبية الظاهرة الإنسانية؛ عوضا عن الاختزال؛ ولقد عالج المؤلفان قضايا المسلمين في الغرب بخاصة؛ ومشكلات الداخلية التي تسببوا هم فيها، من مثل «الانغلاق»، و«العنف الداخلي»، و«تبعات بلادهم الأصلية»... كما عالج ما سببه الغرب نفسه، من إقصاء، ورفض، وظلم.

• **جيفري لانغ، ضياع ديني صرخة المسلمين في الغرب:**

يذكر المؤلف في كتابه «**حتى الملائكة تسأل**» أن غياب الوسطية وتفرق المسلمين فيما بينهم في الجالية الأمريكية كاد أن يسبب له خروجا عن الدين الإسلامي، وارتدادا عن قيمه، تماما كما كان الشأن لصاحبه الذي أسلم، وبسبب الفُرقة بين المسلمين ترك الإسلام. غير أنه لم يلحد، مؤكدا أنَّ القرآن هو الذي كان سبب دخوله الإسلام، وما دام القرآن حقا وصدقا، فلا داعي لذلك؛ ورسخ إيمانه بحمد الله تعالى.

وفي كتابه «**ضيعت ديني**» (وهو الترجمة الصحيحة عوضا عن **ضياع ديني**) يجزم المؤلف أنَّ الوسطية والحوار المفتوح سيكون أجدى وأنفع للمسلمين الأمريكيين الشباب الذين يتصارعون مع عقيدتهم... أكثر من المناقشات المغلقة والنمطية المألوفة، وأجدى كذلك من عدم إجراء هذه المناقشات أصلًا.

ولهذا السبب يشعر أنه من المهم، بل من المفيد أن يكون المرء صريحًا وموضوعيًا وألا يتحاشى الجدل والمناظرات...لأن تقرير حالة ما ضد موقف معين أو معه بصورة غير ملائمة ولا وافية، خصوصًا عندما

يكون الأمر متعلقًا بتحدي التقاليد والأعراف...لا يسفر إلا عن مزيد من إبعاد المرتابين وتنفيرهم.

بالإضافة إلى ما أجراه المؤلف من تمحيص لقضايا الحكمة الإلهية من السماح بوجود الشر... وعدم إقصائه له، لحكمة أرادها سبحانه.

جزائرنا، هل انتهت؟

حاوِل، وأنت في مجلس من الناس، أن تحمل روحا متفائلة، وأن تحلل واقع الجزائر اليوم بشيء من التوازن والاتزان...

إنك ولا ريب ستلقى وابلا من الاعتراض، وإعصارا من الاستنكار؛ حتى إنك أحيانا قد تندم على ما قلت، وقد «تدخل الصفَّ» فتستعير من محاوريك الحجج والدلائل على أنَّ الجزائر «لا خير فيها، ولا أمل في مستقبلها»، وأنَّ الجزائر «آيلة إلى الجحيم، والعذاب المقيم».

في حوارات مع مثقفين، ومع مسؤولين، ومع من يُفترض فيهم أن يكونوا من عِلية القوم، وأن يكونوا فاعلين حقيقيين؛ أجدُ نفسي أحيانا أسبح ضدَّ التيار، وأنا أقرر أنه «مهما بدا الجو مكفهرا، ومهما طال النفق وتكثفت ظلمته؛ فإنَّ الشمس ستشرق، وإنَّ الظلمة ستتبدد»، وأنَّ «ما أقوله ليس كلاما أدبيا، ولا خطابة وردية»، و«إنما هو من صميم الحقِّ، وهو مستمدٌّ

دليله من قرآننا الكريم، ومن روح ديننا الحليم، ومن معرفتنا بتاريخنا، وإدراكنا لما يحوم حولنا».

أسبح ضد التيار، نعم... ولكن، سأواصل السباحة ضدَّ التيار، حتى ولو غرقتُ بعد حين؛ وحتى لو سبح الناس في اتجاه سيلان النهر جميعهم، ولم يبق منهم رجل واحد يرفض الانحدار... ذلك، أنَّ مصير أمتي، وأنَّ مبلغ عقيدتي، وأنَّ صلب قناعتي... كل ذلك، أقوى وأعتى وأشدُّ من أيِّ موج، ومن أي تيار؛ فلا سبيل إذن إلى الشك والتردد، ولا إلى تولّي الدبر والفرار من الزحف.

عدَّ صديقي - الأستاذُ الجامعيُّ - جملةً من مظاهر الأزمة في وطني، وأنا أوافقه فيها جميعا: الاقتصاد ينهار، والفوضى عارمة، والرشوة تنخر الإدارات، ولا أحد يقوم بواجبه على ما يرام، والمدرسة صارت خربة، والعائلة تفككت، والسياسة تحولت إلى غول انتهازي، والمسجد قد خان رسالته... هي قائمة طويلة، مما يمكن جمعه من «عناوين الجرائد اليومية» السوداوية؛ ومما يصادف الواحد منا مطلع كل شمس، ومغرب كل شمس..

قلت لصديقي: أنا على استعداد تامٍّ أن أسجِّل لك قائمة بها مئات العيوب، وآلاف الكوارث، وملايين

المخالفات... لكن، هل هذا يعني أنَّ «الجزائر انتهت»، و«أن لا أمل في مستقبلها»، و«أنَّنا مقدمون على فتنة كبرى»، و«أنَّ إمكان أن ننجو من الفتنة بات مستحيلا»؟

قال سائلا: ما هو الشرط الذي به نخرج من الأزمة التي دخلنا فيها؟ هل لديك اقتراح أو خطة لذلك؟

ثم أضاف: أمَّا أنا فلا أرى البياض آخر النفق، ولا أبصر بصيصا من نور الشمس حيال هذا الظلام البهيم.

قلت متحققا: الشرطُ الوحيد في تصوري، والسبب الرئيس في نظري، هو أن يوجد عددٌ - ولو يسيرٌ - من المقاومين للظلم، ومن الرافضين للفساد، ومن المرابطين في ثغر الخير، ومن القابضين على الجمر، ومن الرجال الذين يسيرون على إثر الرجل الرشيد، الذي قال عنه تعالى في محكم تنزيله: «وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى...»؛ والذي بغيابه هلك آل لوط، وهو السائل: «أليس منكم رجل رشيد»؟.

قال: هل المقاومة والرفض تكون بالكلام، وبالكتابة، وبالقول؟ أم أن ثمة صيغا أخرى، ووسائل غير هذه؟ ذلك أننا سئمنا الكلام، وكرهنا القول، وبتنا ننتظر الفعل الجاد والعمل الحقيق... وكل ذلك غائب في بيئتنا، نادر في محلَّتنا...

قلت: لا تكون المقاومة إلاَّ بالعمل في المساحة التي تقف عليها، وبالإتقان في الثغر الذي تشغله، وبالإحسان في «نقطة الانعطاف» التي تجسدها؛ فإن كنت معلما، فإنَّ المقاومة لا تكون إلا بأن تكون معلما حريا بخلافة النبوة، وإن كنت فلاحا فلا يكون الرفض إلا أن تنتج أحسن الثمرات، وإن كنت تاجرا أو صناعيا أو طبيبا أو غير ذلك، وجب عليك أن تعمل فتتقن وتحسن، ثم بعد ذلك يجدر بك أن تقول، وأن تنصح؛ ذلك أنَّ الكلام لا يرفعه إلا العمل، ولا يسمع الناس لمن يخالف قولُه فعله...

المقاومة والرفض تكون بالإعراض عما ألفه الناس من انحراف وانجراف؛ فإن يكن الناس قد استمرئوا الرشوة، وبرَّروها، في الإدارات والجامعات والمؤسسات... ثم جاءت مناسبة أن تكون دافعا للرشوة أو قابضا لها؛ فلا تكن إمَّعة، ولا تكن «كالناس»، ولا توجِد لنفسك مبرِّرات تستحلُّ بها ما حرَّم الله تعالى؛ لكن، كن صادقا، صدوقا، صدِّيقا.... وقف رجُلا شهما في وجه الفساد والظلم؛ وانوِ ذلك أجرا ومثوبة عند الله تعالى؛ وإن لم تفعل، فأنت والمرجفون في المدينة سواء، ولا معنى لقولك المزوّق حينها ولا لخطابك المنمق يومها؛ ونصيحتي لك أن تصمت وتسكت...

هذا أسلم لك وأنفع لدينك وبلدك...

أنا منذ سنوات أراقب عددا من المتشائمين، وممن يحمل خطابا ظلاميا قاتما، وكلي أملٌ أن تكذب فراستي فيهم؛ فوجدت أنَّ هؤلاء صنفان: صنف متشائم قولا لا فعلا، وصنف آخر متشائم قولا وفعلا.

أمَّا الصنف الثاني، فالغالب فيه أنَّه جبان، كَلٌّ، لا ينفع إلاَّ في دوائر الكلام والإيهام، لا يحسن العمل لدنيا ولا لدين؛ قليل العلم، جاف المشاعر، جلف الأخلاق؛ وهو لا يقول خيرا، ولا يفعل خيرا، إلا إذا تكلف، وسرعان ما يزول الستار، ويحول الغبار، فينكشف على حقيقته، ولو بعد حين.

أما الصنف الأول، ممن يحمل خطابا تشاؤميا ظلاميا، لكنه فاعل ناجح أوان عمله، في التجارة أو الإدارة، في المدرسة أو المصنع... فهؤلاء، يكذِّب فعلُهم قولَهم؛ وهم لأجل ذلك لا يؤتمنون، ولا ينبغي للواحد منا أن يحمل مقولتهم محمل الجدِّ؛ ولقد تعلَّمت حين ينطلق أحدهم في عدِّ المفاسد أن أعد له المصالح، وحين يرصد النقائص أن أرصد لهم الكمالات....

ومن عجب أني، حين كنت طالبا في الجامعة، كنت ألتقي ببعض التجار، ممن يكيلون أموالهم بالملايير،

ولهم في الحياة ضيع وفيلات، شركات وشراكات... ثم هم مع ذلك، يُسمعونني شتى أنواع الشكاية، وهم أبدا قلقون من الغد، خائفون من الفقر، تُظلم الدنيا أمامهم لمجرد صدور قانون جديد، فيحذَرون ويحذِّرون... والحال أني، أنا المستمع، لا أملك دينارا ولا درهما، إلا ما أسدُّ به رمقي، وما أحقق به ضرورات حياتي، ومع ذلك تجدني مقدِما، مطمئنًّا، شاغلا وقتي بالقراءة، شاغرا ليلي ونهاري بالتفكير في الناس، لا أخاف المستقبل، ولا أعتقد الشر في بلدي...

ولقد حيرني هذا الحال سنوات، حتى تعلمتُ أن لا أحمل ما يقول أمثال هؤلاء محمل الجد، وإنما فهمت أنه نوع من الإيهام والإبهام، وهو مجرد كلام يعتقد به صاحبه أنه تبرير لحاله، ومحاولة لتلطيف الأخطاء التي يرتكبها، والغلطات التي يقترفها، حيال الأمة، وحيال البشر... والغافل من يحزن لحزن المتشائمين، ويقلق لقلقهم؛ فهو أبدا في دوامة من الأفكار القاتلة، وهم من وراء ظهره يكنزون الذهب والفضة ولا يبالون....

لكن، بعد أمد التقيت بجملة من التجار الأوفياء، ممن عمروا حياتهم بالبر والخير؛ فتراهم أبدا شاكرين لله تعالى، لا يكذبون الناس، ولا يبالغون في وصف الظلام، بل تراهم أبدا يحاولون بما أوتوا من قوة أن

ينشروا بصيص الأمل، ويدعوا الناس إلى الإحسان في العمل... فرأيت من هؤلاء، ما يجعلهم من عباد الله المخلصين، ومن عبيده المخلِصين... ولقد واللهِ حباهم الله بفضل من عنده، وحماهم من غضبه، ووعدهم رضاه وجنته... أولئك هم الفائزون...

"هلك المتنطعون" دردشة في أزمتنا وحقيقة انتخاباتنا...

سئل الإمام اللغوي الزمخشري عن كلمة «أضغا» بالبربرية، ما معناها؟ فقال أمَّا معناها فلا أعرفه، ولكنَّ جرسها وصوتها، واجتماع الضاد مع الغين في ثقلهما، كل ذلك دال على القوة والشدة، فقيل له: أصبت، ذلك أنَّها تعني «الحجر الصلد».

ولو سئل أحد عن معنى كلمة «المتنطع» وهو لا يدرك مدلولها، وكان له مع ذلك حسٌّ بلاغيٌّ وجرسٌ صوتيٌّ دقيق، لقال: لا أعرف ما المتنطع، ولكن لا ريب أنَّها تدل على معنى فيه العناد والمكابرة، والصلف والتجاوز.

قال رسول الله ﷺ: «**هلك المتنطعون... هلك المتنطعون... هلك المتنطعون**».

وبالتعمق في مصادر اللغة نتبين أنَّ التنطع ينضح بمعاني: التعمق، والتأنق، والمبالغة، والتكلف، وأصل التنطع «جعلُ الطعام في النطع، أي في الغار الأعلى من الفم، حيث موقع اللسان من الحنك».

وبالعودة إلى خاصية الاشتقاق في اللغة العربية، يمكن أن نصوغ من مادة «ن.ط.ع» جملة من المصطلحات، وهي جميعا تصبُّ في ذات الاتجاه الدلالي، منها: (طعن)، الذي يعني الضرب والتخريب وغيرها؛ وكذا (عطن)، الذي يفيد معنى الشدة في الصبر، والعطن مبرك الإبل. ولو تأملنا المعنى الشامل لوجدنا المبالغة والشدة جامعة بينها، سواء في نطع، أو طعن، أو عطن.

والتنطع في دنيا الناس، هو «التشدد في غير موضع الشدة»، و«الخروج عن الحد في الاتزان»، و«المغالاة في الكلام»، و«تكلف الفصاحة»، والتشدق بالكلام بغير طائل»، و«التشدد في الأقوال وفي الأفعال»، وأضاف ابن حجر معنى معرفيا بديعا وهو «الإكثار من التفريع في مسألة لا أصل لها من كتاب وسنة» يضيِّع بها الوقت والجهد على الناس.

ولو أسقطنا دلالة التنطع على عالمنا اليوم، وعلى أوطاننا وديارنا، فكيف نفهمه؟ وكيف نفسره؟ وكيف نتحاشاه؟

أخذ التنطع في زماننا أشكالا خطيرة، من مثل الإيغال في «التحليل» تحت عنوان «الخبرة»، وإشغالُ الناس بالتوافه من الأمور تحت عناوين كبيرة وبراقة، واللفُّ والدوران حول مسائل بسيطة قصد تعقيدها بدعوى

تقعيدها؛ واستعمالُ العناوين الصادمة لمواضيع تافهة في الإعلام اليومي، وإدخالُ اللغات الأجنبية في الكلام قصد إعلام المستمع «أنك خبير باللغات» فينبهر بك، والتعمقُ في المسائل الخلافية من خلال محاضرات إعلامية يتيه الناس فيها ولا يهتدون... وغير ذلك من الصور التي لا حد لها ولا حصر في عالم الناس، بخاصة ضمن الوعاء الحضاري المتخلف.

اليوم، ونحن في جزائرنا نعالج ظاهرة «الأزمة الاقتصادية»، وانهيار قيمة الدينار الجزائري مقابل العملات الصعبة، وتقهقر تكلفة البرميل من البترول، في حين أن البلد يعتمد عليه في اقتصاده بصفة تكاد تكون كلية...

اليوم، ونحن نعايش هذا الواقع المرَّ، يكثر المتنطعون، ويعظم خطر الذين يخرجون بالموضوع عن حدِّه، ويتبجح المحللون بألفاظ لا يكاد يفهمها العالِم بلْهَ المواطن البسيط، ويعمل الإعلام على إغراق الناس في محيط من الوهم والشبه والسفه والتشاؤم...

قد تتعب من القراءة، وقد تعيى من السماع، وقد تصبر نفسك لعلك تخرج بما يفتح أمامك نافذة من أمل، أو بصيصا من رجاء؛ فلا تكاد تهتدي إلى شيء ذي بال؛ وإنما الذي تخرج به بعد تصفُّح الجرائد،

وبعد الجلوس للحصص المسموعة والمصوَّرة، وبعد المحاورة مع من حولك من الناس من مختلف المشارب والمستويات هو فراغ وهراء وعنى لا يكاد يستقيم.

ولكن، ماذا لو استمعنا إلى رسول الرحمة محمد ﷺ وهو يعلمنا كيف نعالج واقعنا المرَّ، بالحكمة لا بالسفه، بالفهم الأعلى لا بالتنطع الأدنى؟

ترى، هل من سبيل للخروج من أزمتنا لو وعينا وفهمنا، ولو علمنا وعملنا؟

الحق أنَّ الدينار لو نزل أو صعد، والبترول لو غلا أو رخُص؛ فإنَّ القيمة الحقيقية تكمن في الإنسان الراشد الرشيد؛ فقليل من المال وكثيره بيد سفيهٍ، سينتهي به عبدًا لشهواته؛ وقليلٌ من الثروة أو كثيرها بيد سافل سيودي بها إلى الخراب؛ وقليل من الوطن وكثيره بيد غبي سينتهي به إلى عبودية لا فكاك منها...

وإنما الذي يحوِّل القيمة من سلب إلى إيجاب، من تحت الصفر إلى الملايين والملايير فوق الصفر، من الوبال إلى قيمة نادرة المثال... هو الإنسانُ إذا رشد، والإنسانُ إذا فقه، والإنسانُ إذا علم وعمل، وإذا فهم وتحرك في الاتجاه الصحيح.

لم أقرأ في بحر هذا العام مقالة واحدة تعيد الأزمة

الاقتصادية إلى أصلها الحقيق، إلا ما كان من كتابة «فكرية متخصِّصة»، في ركن «الفكر والحضارة» من المجلات والجرائد؛ والتي غالبا ما يقصدها القراء المتخصصون، والذين لديهم الصبر الكافي للجلوس إلى المقالات المطولة.

هذا عن التنطع حول الأزمة الاقتصادية، ولو أننا تتبعنا ألوان التنطع في حملتنا الانتخابية كذلك، وفي سائر الحملات السابقة، لوجدنا ظلما من القول وزورا؛ من ذلك مثلا شعارات الأحزاب في أغلبها، والتي هي رجعٌ للصدى، ومحاولةٌ للإيهام، لا تملك الرصيد الذي به تحققٌ وعودها، ولكن يكفي أن ينتخب المنتخب على الواحد منهم، حتى ينسى المنتخِب (بالكسر) والمنتخَب (بالفتح) ذلك الشعار، الذي يتحول إلى أرشيف متهالك تلتهمه الأرضة وتمحو حبره الأيام.

يعلق أحد المواطنين البسطاء على هذه الشعارات بكلمة: «تبلعيط» وكأنه يفسر معنى التنطع بالدارجة؛ ويقول آخرُ عنها هي «خُرطي»، وهو بذلك يشرح دلالة التنطع بطريقته، وثمة مدلول «الفستي»... وغيرها من المصطلحات التي تشكل قاموسا صارما صريحا، يقع مثل المقصلة على الأوهام والإيهام؛ ويبين بما لا يدع مجالا للشك أنَّ الناس «فاقو» كما يقولون؛

ولكن يبقى السؤال: هل حقا فاقوا؟ أم أنه تنطع آخر، بطريقة أخرى، من جهة أخرى؟

صدقت يا رسول الرحمة عليك أزكى السلام: «هلك المتنعطون... هلك المتنطعون... هلك المتنطعون»...

غنم بلا غرم،
حين ننتخب ولا نحاسب

في التراث الأدبي الفرنسي مثل سائر يعود إلى نهايات القرن التاسع عشر، وهو يحكي عن الفلاح الذي يصنع الجبن، ويريد أن يحصل على ثمنه ببيعه، ولكنه بالحيلة يسعى ليبقي ذلك الجبن وأن يفوز بثمنه في آن واحد، وصيغة المثل تقول: «**Vouloir le beurre et l'argent du beurre**»، وحين نبحث عن ترجمته، إذ الأمثال لا تترجم لفظيا، نقرأ مقترحا في موقع متخصص في ترجمة الأمثال، وهو: «أنا أعتقد أني أستحق أكثر من كعكة»، «أطلب الكعكة وأكلها أيضا»، ومن التراث الأدبي يروى عن «إميلي» أنها «تخبز الكعكة وتأكلها»؛ لكن الصيغة الأدقَّ في نظري، والترجمة الأكثر ملاءمة، لم ترد في هذا العمل الأدبي، وهي صيغة «الغرم بالغنم» التي هي قاعدة كلية فقهية، معناها أنه «إنَّ مَن ينال نفع شيء يجب أن يتحمل ضررَه». أي أنك لا تستطيع أن تنتفع وأن لا تتحمَّل الضرر اللاحق جراء ذلك النفع في آن واحد».

هذا المدخل إنما هو توطئة لفكرة لا تزال تساورني، وأنا ألاحظ وأقرأ وأسمع، أولئك الذين يهرفون في أمور السياسة والمجتمع، بلا ضابط من عقل ولا وازع من شرع؛ فيطلبون الشيء ونقيضَه، ويحاجُّون على جمع المتناقضيْن على كف واحدة؛ فترى الواحد منهم يجادل عن الرخاء بلا عمل، وعن الحق في السكن بلا اجتهاد، وعن الحرية المطلقة بلا تفسُّخ وتحلل، ويطالبُ البعضُ منهم تطوير السياحة في الجزائر مثلا، ثم هو لا يقبل أن يذل الناس للسواح، وأن يبيعوا الغالي والرخيص لإرضاء ذلك الحامل للدولار واليورو؛ حتى إنَّ منهم من يطالبك أن تكون مثل «قبرص» أو «تونس»؛ وهو مع ذلك يعرف أنَّ السائح لا يرتضي مكانا ولا منزلا إذا لم تُنتهك فيه الحرمات، ولم تبع فيه الذمم، ولم تعرض فيه النساء للنخاسة، والرجال لتلميع الأحذية... وهلم جرا.

والانتخابات ظاهرة مرَضية تحمل بعض الخير، ولكنها مع ذلك الخير تستبطن الكثير من الشرِّ؛ من مثل «تضخيم الأنا»، وتقديس «الزعيم» المترشح، وبيع «الأوهام»، واستحلال «الكذب» وهتك الأعراض، وتوظيف المال لخدمة السياسة ظرفيا، بُغية تسخير السياسة لتضخيم المال أمدا بعيدا... غير أننا هكذا

استوردناها، فلم ننل خيرها، ونالنا من شرها الكثير؛ ذلك أنها في سياقات غربية تلازم نوعا من «حوارات ساخنة»، ومن حرية في النقد لا حد لها، ومن فرص للمحاسبة والتفتيش وحتى الجوسسة على المترشِّح، في أدنى جزئيات حياته؛ ولكننا بحكم عقليتنا، وبالنظر إلى طريقة تفكيرنا، نُعفي المترشح دائما من المحاسبة، ونمنحه غالبا فرصة لاستعراض «عضلاته» بلا دليل ولا برهان، ولا برنامج ولا مخطط؛ وإنما يكفي أن «يكون» وأن «يقول»، وأن «يجرأ» على الكلام إذ يصمت الناس، وعلى الادعاء حين يتعفف الناس.

خذ مثلا، المترشحين للمنصب البرلماني، وهم يتبادلون المناصب كلَّ عهدة من الزمان: كم منهم، ومن منهم قدَّم تقريره للذين انتخبوه يوم غادر الغرفة، وانتهى من مهمته؟ وكم منهم، ومن منهم حوسب على ما قدم وما أخر وهو ينعم بالريع والشأن والأجرة الوافرة؟

طبعا، لا تعني ملاحظتي نفي وجود أمثال هؤلاء، فقد يكون ثمة «بعض» منهم؛ ولكنهم لا يشكلون القاعدة، ولا الأغلبية، ولا الحالة الطبيعية؛ ومن هنا يصدق علينا في شأن الانتخابات وممارسة الحريات، أننا نريد الجبنة ونريد ثمنها؛ نريد غنمها ونرفض غرمها،

نحسبها خيرا محضا ولا نتحمل جانب الشر فيها.

فهلا فكرنا مليا في الواجب قبل الحق، وفي الغرم مع الغنم، وفي عين الله تعالى قبل عين العباد...؟

«هذا مربط الفرس»، كما يقال في المثل العربي السائر، ولهذا المثل قصة ليس هنا مقام سردها...

أيا تلمسان، أنت الأمل وفيك العمل... فَـلِـمْ تتمنَّعين؟!

هي هكذا ولدت عروسا مدللة تتبختر، وهي منذ الأزل خـالًا[1] على وجنةٍ حسناء تتورَّد؛ هي مقصد العاشق الولهان، وهي قِبلة العابد السهران؛ تباهي الغوطة[2] جمالا وافتتانًا، وتضاهي قرطبة جلالا ودلالاً؛ لكَم هزأت من عوادي الدهر تنزُّلُ عليها نارا شواظا، ولكَم أغرت الملوك فَلقَوا حتفهم في دِراكها، حسبُ الواحد منهم أن يُعرف في التاريخ بـ«مجنون ليلى»، وما ليلاه سوى «تلمسان» الحسنِ والندى.

غنَّاها الشعراء طربا يتمايل، ولقد هاموا في هواها وما أبانوا؛ وللمجد فيها أساطير ينقلها طارف عن تليد، وحكايات ينسجها والد لوليد؛ ليس الواحد منا يقدِرها قدْرها إلاَّ إذا «اغترف غرفة بيده»، وشبَّك عشْرَه، فارتوى من مائها الزلال، ثم أصاخ الآذان منه سَحَرًا، فتماهى بين شجيِّ البلابل ومقامات الأذان.

(1) ما يعرف بالدارجة "الخانة".

(2) ـ أيام كانت ـ فرّج الله عنها.

دخلتُها مُطرقا... كلِّي خجل أني تأخَّرت عن ركب العيس دهرًا، فلم أحظ بروعة لحاظها الأوَّل يومًا، ولم أعبَّ سُلافة صفائها الرقراق سَاعة؛ وها اليوم أستدرك وأستغفر ربي من خطيئة الجهل بمَحتدي وأرضي، ثم أتوب من كبيرة القطيعة لأهلي وبني عمومتي، نادما أني صوَّحتُ بعيدا وزرتُ أقاصي الدنيا وأدانيها؛ وتلمسان شمسٌ أخطأتها العينُ مني، قِصَر نظرٍ وعمًى.

أبو مدين الغوث، ومحمد بن يوسف السنوسي، ولالة ستي، ويوسف ابن تاشفين، ويغمراسن بن زيان، وأبو حمو موسى، وعبد الرحمن ابن خلدون وأخوه يحيى، والشريف التلمساني، وابنا الإمام، وأبو عبد الله الآبلي، وابن مرزوق الجد والحفيد، وعبد الكريم المغيلي...

كوكبةٌ من نجوم ساطعاتٍ في سماء التاريخ، وقاماتٌ وهاماتٌ تداعب الجوزاء فخرا، وتعيد للقلب الأملَ المفقود قهرا، وتعلنها للعالمين سرًّا وجهرًا: هذي الجزائر، فجئني بمثلها «إذا جمعتنا يا جرير المجامع».

في كتاب «**بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**»، يصف يحيى ابن خلدون تلمسان بقوله: «بها للملك قصور زاهرات، اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقة، والبساتين الرائقة، مما زخرفت

عروشه، ونقت غروسه، ونوست أطواله وعروضه؛ فأزرى بالخورنق، وأخجل الرصافة، وعبث بالدير».

أمَّا شاعر بلدتي وبلدي، شاعر الثورة مفدي، فقد ألقى أقلامه زمنا، فعاش هنالك وقلبُه مغروز هنا؛ وأنشدها أبياتا خالدات، تزيد للحسن حسنًا، وتضفي للجمال جمالًا، فقال:

تلمسان مهما أطلنا الطوافا

إليك تلمسان ننهي المطافا

وقال لا فُضَّ فوه:

أمانا ربوع الندى والحسب

أمانًا تلمسان مغنى الأدب

تلمسان، أنت عروس الدنا

وحلم الليالي، وسلوى المحب

ولقد عقدتُ العزم على ثني الركبة هنا زمنًا غير يسير، فيسَّر الله لي حبيبا أديبًا، أغدق عليَّ من خيراته، ووهب لي بيتا لطيفا بديعا هو من تمام مبراته، يجاور «الجامع الكبير» إلاَّ قليلا، فكان لي مستقرا وقرارا؛ منه أنطلق فجرا نحو حِلق التلاوة، يحدوني الوَجد ويحدوها «الإيقاع الهبطي» الهادئ الجميل؛ هازئا من

دُعاة «البدع» الذين جمَّدوا الدين في صور وأشكال تخيَّلوها، ثم حمَّلوها نصوصا هي منهم بريئةٌ، وهم فيها أفرغ من جوف قِربة...

شيخٌ مهيب، وإمام وقورٌ... يؤمُّ الناس بالرفق والتحبيب، لا بالتجهُّم والترهيب... لحظةَ التكبير والترنم بآي الذكر الحكيم تعيد اكتشاف ذاتِك، وتغسل بالماء والبرَد جوهرة الإيمان في قلبك، وفي قرارة فؤادك...

فتنادي بأعلى صوتك ولا تبالي:

«يا لها من نفحات ربانية، وأوقات ملائكية، أدامها الله علينا دنيا، وآجرنا بها يوم اللقاء».

ثم إني، توضأتُ صبيحة يومٍ مشهود، وقصدت مقامًا لطالما رأيته حلُما لا عيانًا؛ وقرأت عنه ما يملأ تاريخنا فخرا ومفاخر، وشاهدت عنه صورا قديمة توقَّف فيها ركب الزمان إجلالا وتعظيما... إنه مقام «محيي تلمسان» في الآخِرين، ولقد كان محييها الشريفُ التلمساني في الأوَّلين:

أمَّا الرجل فهو الإبراهيمي البشير، وما أدراك ما البشير؟ مَن استنزل المجد استحقاقًا، وبنى لنفسه لسانَ ذكرٍ في العالمين صدقا وعدلا؛ وأمَّا المقام

«فدار الحديث»، وما يدريك ما دار الحديث؟ جامعة وجامع، مدرسة وناد، دوحة للعلم وآية للجمال المقطَّر الخالص.

وفي «دار الحديث» حططتُ الرحال، وانتسبت فيها وبها، متشبِّها بالكرام وما أنا منهم، فإني سمعت من زمن الصبا «أنَّ التشبه بالكرام فلاح»؛ فيها لازمت الكتاب والقرطاس واليراع، إلى جوار الشاشة والموقع والبحث الرقمي... وبها لهجتُ: «باسم الله أبدأ... وعلى بركة الله أسير...» في إعداد بحث يعتصرني اعتصارا؛ بحثٍ لطالما فكرت فيه همًّا واهتمامًا، بحثٍ هو امتداد لعمل علميٍّ سابقٍ، نشر قبل عام تحت مسمَّى «أصول الإيمان: التوحيد ووحدة الأمة»؛ وكان يومها مؤلَّفا مشتركا مع صديقي الدكتور مصطفى وينتن... وهو فاتحة لكتاب وقطرة في محيط... لا أرى لها آخر، ولا أعرف لها قاعًا...

عملي فيه يأخذ هندسةً أولية في جدلية العلاقة بين «الإيمان» و«الإنسان»؛ وهو يغوص في مفارقة الفصل والوصل: حين يُضيع الإنسان الإيمانَ، وحين يتنكر الإيمانُ للإنسان... فصلًا؛ ثم حين تعود الرابطة والآصرة بين إيمان حي، وإنسان صالح... وصلًا.

ولقد استقبلني الشيخ العلامة «فقيه تلمسان» ابن

يونس آيت سالم، ومَن معه من الفضلاء الأصلاء؛ ثم إنهم فرَضوا عليَّ سخاءً منهم أن أجلس على كرسيِّ البشير ومكتبه، فأخِذت لي صورة شمسية أعتز بها، ولكني قلت ساعتها: «أستغفر الله عاما من هذه الخطيئة، التي حملتني على الجرأة، ودفعتني إلى الجلوس في هذا المقام المجيد»...

أستغفر الله، ولا أزال أستغفره.. إلى أن يرضى ربي ويغفر.

ناهيك عن زياراتٍ عائلية إلى قمم لالة ستي، وشلالات الوريط، ومغارات بني عاد، وخرائب المنصورة، وقلعة المشور، وأسواق المدينة العتيقة، ومساجد البلدة العريقة، ومتاحف الخط والفن، ومكتبات المدينة، وحديقة الحاج عيسى، ومناسج الحرير، والبساتين والصروح، والمآثر والمفاخر... هي فاكهة تريح من دسم الألم والفكر، وهي مُستراح من عناء الكتابة والتفكير؛ ذلك أنَّ التأليف اليومَ بات جنونا أو إيمانا؛ لا شيء فيه من الوظيف، ولا حظَّ فيه من الرغيف...

أحمل همَّ الرحِم الذي بيننا: دينٌ واحد وإيمانٌ واحد، وطنٌ واحد وبلدٌ واحد، تاريخٌ واحد ومصيرٌ واحد... حلمُ «العالم الإسلامي» الذي اندثر، وحلم «المغرب الكبير» الذي تبخَّر...

على خطِّ الحدود بين الجزائر والمغرب، ركنتُ السيارة برفقٍ، مخففًا الوطء، والتقطت صورةً أسفل الإشارة المكتوب عليها: «وجدة 14 كلم»... كنتُ ساعتها أبصر جبالا تحيط بوَجدة، وسماء تظل وَجدة، وإني أكاد أسمع صوت صبيتها، وأترنم بزقزقات عصافيرها؛ إلَّا أنَّ أحكام «سايكس بيكو» بعد قرن من الزمان، لا تزال هي القاهرة على واقعنا، وهي المتحكِّم في مصائرنا؛ ولتذهب مصالح إنساننا إلى الجحيم؛ ما دام السيد قد أمر، وما دام الآمِر قد قهر...

همي أنَّ الواحد منَّا بات يعرف عن «مدريد» كلَّ شيء، ولا يعرف عن «مجريط» أيَّ شيء؛ رحمُ الكرة تحرك كوامن قلبه، وتنشر الكهرباء بين أضلعه... فيهيم في حبها بجنونٍ ولا يبالي؛ أمَّا ريح التاريخ وآصرة الإيمان فلا تعنيه في شيء، ولا تذكِّره بشيء؛ ولقد كان الواحدُ منا - يوم كنَّا - يولد في إشبيلية، ويدرس في فاس، ويقيم بتلمسان... أو هو من بجاية يسافر إلى قرطبة، ويتزوج في دمشق... ومنهم من يتاجر في تونس، وينصر جيش الأندلس... بلا حدود ولا قيود... أمَّا اليوم، فدون تنقُّلنا، ودون تزاورنا، ودون تبادل المنافع بيننا... خرط القَتاد...

ولكن، لا يزال الأمل قائمًا، أن نفرَّ إلى ربِّنا، ونؤوب

إلى رشدِنا، وتعود المياه إلى مجاريها، والمثل الصيني السائر يذكِّرنا «أنَّ الماء المنساب يغلب الصخر الصلد»، ولله سبحانه وتعالى عباد «إذا أرادوا أراد»... وما أمره «إلاَّ واحدة كلمح بالبصر»... «وإنَّ غدا لناظره قريب».

تلمسان، هذه لمحة من قصتي، ولا يزال في الجوف مغمورُ الحنين ومكنونُ الأنين...

وتبقَين تلمسانُ، زهرةً فواحة يحميها الحامي من الأعادي والأيادي؛ تبقَين شامخة، فتُعيدين للأوطان مجدها الأثيل، إن لم يكن اليوم فغدًا، وليس الفرج من الله الكريم بمستحيل...

أيا تلمسان، أنت الأملُ وفيكِ العمل... فَلِمْ تتمنَّعين؟!

والي ولاية غرداية[1]: وإذا أسند الأمر إلى أهله فارتقب رحمة الله

كثيرا ما يسألني الشباب: هل تمارسون السياسة؟ ما علاقتكم بالسياسة؟ وما هو الخط الواصل بين الفكر والسياسي؟ وبين التربية والسياسة؟

أجيب بلا تردد: السياسة في وعي الفكر الإسلامي تعني «فن تدبير شؤون العباد»، أو هي «فن تدبير وإدارة الممكن»؛ وبالتالي فهي مقاربة للخير وللحق، قد تتعارض مع المثالية المفرطة، التي تفترض الملائكية وغياب الخطأ... تلك المثالية التي تخوِّف الناس من ممارسة السياسة ما لم ترق إلى «الحق المطلق»؛ وبالتالي تضيِّع شؤون البلاد والعباد، فيتحكم في أقدار الناس سقطُ المتاع.

من هذا المدخل أجدني ملزما - إلزام واجب، لا إلزام مصلحة - أن أنوّه بوالي ولاية غرداية، الذي من خلال جهوده الحثيثة والصادقة، ومن خلال الحوار

(1) والي ولاية غرداية، هو السيد مشري عز الدين.

الذي سمعناه في قناة «دزاير نيوز»[1] بعناية فائقة؛ نشهد أنه أهل لسياسة عادلة، وأنه الرجل في مكانه[2].

كيف ذلك:

• **قربه من الناس**: هو ليس صاحب مكتب، قابع على أريكته الفارهة، ينتظر الناس ليزوروه أو يقدموا إليه التحايا والهدايا؛ وإنما هو صاحب ميدان، يبادر المشاريع، والمؤسسات، والشركات، والإدارات في كل وقت وآن؛ حتى أصبح الجميع يتوجس حضوره في كل حين وحال؛ فانتظَم لأجل ذلك كثير من شؤون الولاية، وارتدع الكثير من المسؤولين، وكأننا في ذلك نذكر بقولة سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

• **قدرته على السماع**: كثيرا ما عقد لقاءات سماعٍ، وأحضر القائمين على المؤسسات لتستمع إلى المواطن، بكل أطيافه: شبابا وشيابا، صغارا وكبارا؛ وأيم الله إنَّ الصبر على السماع ملكة ليس كلُّ الناس يقدرها؛ وفي المثل السائر: «يحتاج المرء لعامين كي يتعلم

(1) نحيي، ونشكر قناة «دزاير نيوز» على حصتها، التي توجهت إلى النصف العامر من الكأس، لا إلى النصف الفارغ منه، وزرعت الأمل في النفوس.

(2) كذلك أشيد بكل مسؤول، في أي مقام كان، حين يكون صادقا وعادلا وعاملا؛ نذكر مثلا والي العاصمة السيد زوخ عبد القادر.

الكلام، ولكنه يحتاج خمسين عاما ليتعلم السماع».

• **احترامه للقيم والأخلاق وروح المجتمع**: هو رجل يحترم القيم، ويتعامل مع الأصول، ولا يقفز على الخصوصيات الحضارية للمجتمع بشقيه؛ وبالتالي تجده حاضرا في كل حدث يخدم هذا الاتجاه، وقائما على كل مبادرة تخدم هذا المبدأ. والوطن غني بخصوصياته، كما هو، لا بإقصاء وإلغاء تلك الخصوصيات، من منطلقات أيديولوجية لا حظ لها من الحق.

• **إيمانه الوثيق بالسلم**: فلا تجد فيه أدنى شك أو ريب في ضرورة السلم، وهو يعمل لذلك صباح مساء؛ وهو سند للجيش الوطني الذي نحييه بخاصة قلوبنا، كما نحيي كلَّ من ضحى ويضحي لأجل سلامة هذا البلد الأمين؛ لكن والينا إضافة إلى الحفاظ على السلم بالروح الأمنية الصارمة، وهو ما نشجع عليه، وندعو إليه؛ إضافة إلى ذلك، نجده يفهم السلم في خيارات أخرى: السلم الاجتماعي، التربوي، النفسي، الديني، الاقتصادي، الفكري، الإعلامي... ويعمل في جميع تلك الجبهات، بلا هوادة، ولا يبالي.

• **الخاص أو العام، لا فرق**: تجد الرجل يحرص على كل مبادرة سواء أكانت في القطاع العام أم الخاص؛ ويدفع بالمبادرة بأي شكل كانت؛ وهو ليس

دوغماتيا، متحيزا لشكل على حساب آخر؛ وإنما تحيزه ودفاعه عما يخدم المصلحة العامة؛ وهو بالتالي يذكر مبادرات خاصة بأصحابها، وبأسماء أصحابها، على الملأ، ولا يبالي.

• **الإنصاف، وتقبل النقد**: هو لا يدافع عن كل شيء كما اتفق؛ وإنما نجده مثلا في مجال الصحة يقول: «هو قطاع على طاولة الإنعاش»، وينتقده بشده؛ ويقول عن الملاعب الجوارية ومركبات الشباب: «نعم، رغم ما حقق، هي ناقصة جدا، وأقر بذلك»، وعن الإدارة يقول: «لا تزال بعض الجهات الإدارية تمثل الورم الخبيث لكل مشروع تنمويٍّ، والورم ينبغي اسئصاله».

ثم هو لا يتوقف عند الوصف؛ وإنما يتجاوزه إلى اقتراح الحل، والمبادرة في الحل.

هو مواطن يحس، وينبض قلبه على إيقاع قلوب الرعية: قال لا فض فوه، والعبرات تكاد تسبق العبارات: «والله أنا أتألم حين أرى شابا عوض أن يتقدم لامتحان البكالوريا، يقبع وراء قضبان السجن؛ وأنا أبٌ أحس ما يحس الآباء نحو أبنائهم، وأتألم... وبحول الله سنجد حلولا لائقة لذلك». وهي كلمات صادقة، تدفع كلَّ واحد منا للتفكير الجاد المنصف، وتحمل المسؤولية كاملة.

لا أريد أن أسترسل في الوصف ولا في إسداء معاني الشكر مبالغةً، إذ ليس من ديننا المدح، ولكن من ديننا أن نقول للناس حسنا، ومن ديننا كذلك: «وأما بنعمة ربك فحدث». «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»؛ وكذا من ديننا أننا لم نؤمر أن نقلب على قلوب الناس «أفلا شققت عن قلبه»، وفي الحديث الشريف: «**أمرت أن أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر**».

لا أسترسل، بل أقول:

إنه يجب وجوبا شرعيا، عقديا، أن ننصر هذا الخط المعتدل، من أيِّ جهة جاء؛ الخط الداعي إلى السلم؛ وأن نقف إلى جانب من يعمل لأجله؛ لأن مصالح العباد والبلاد على المحك؛ وثمة جهات كثيرة تعمل على التشويش والتشويه؛ وتستغل وسائل التواصل الاجتماعي، ووسائل الإعلام - غير المسؤولة منها- في زرع فتيل الفرقة، والدفع بالناس، وبالولاية، وبالوطن، وبأهلنا في العالم الإسلامي جميعا إلى أتون فتنة، بتنا نعرفها، ونعرف تبعاتها على الأديان، والأنفس، والأعراض، والأموال...

نعم، لا نريد أن نسير على خطا العراق، أو سورية، أو ليبيا... بل نريد سبيلا أكثر حكمة، وأوسع عافية، وأحب إلى الله تعالى.

لا أسترسل، بل أقول، ولا أبالي، مِن مقام تخصُّصي التوحيديِّ العقديِّ: كل من لم يجتهد في الدعوة إلى السلم، ولم يعمل على إحلاله، وكل من طالب بالمثالي دون اعتبار للتدرج، وكلُّ من دعا إلى الإعنات، واعتمد أسلوب الشتم والسب والظلم والتنقيص، متلاعبا بمصير مجتمع بأكلمه، بل أمة برمتها (الجزائر)؛ هو في عداد المفسدين في الأرض، وقد عُلم ما جاء في كتاب ربنا عن الذين يسعون في الأرض فسادا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: 33]، وفي آية أخرى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[المائدة: 64].

دلت الآيتان أن من يوقد نار الحرب، وأنَّ من يدفع إلى أتون الفتن، بأي مسمى كان، ومن أي مبرر كان؛ مما يستتبع إراقة لدماء الناس، وهتكا لأعراضهم، وتخويفهم، وإفساد دنياهم وآخرتهم... كل من كان هذا شأنه، فهو من «المفسدين»، والله تعالى «لا يحب المفسدين»، ونحن «لا نحبُّ من لا يحبُّ الله، ولا يحبه الله»؛ حتى وإن هذا المفسد في الظاهر من المصلين العابدين؛ ذلك أن معصية الفتنة يتعدى

ضررها، وأنَّ طاعة العبد لنفسه لا يتعدى أثرها؛ وما يتعدى أثره أولى مما لا يتعدى.

ثم إني أنبه إلى خطورة الكلمة، والصورة، والدعاية، والتشهير في وسائل التواصل الاجتماعي (الفايسبوك، التويتر...)؛ ولقد ينظر البعض إلى الموضوع نظرة سطحية، ويحسبونه هينا؛ والحال أنَّ لمسة من يديك على لوحة المفاتيح، ونشر كلمة أو دعوى لفتنة قد تفقدك رحمة ربك، وقد تورثك النار خالدا فيها أبدا؛ مصداقا لآيات بينات، لأحاديث واضحات، الجميع يحفظها، لكن العمل بها هو المطلب الشرعي، ومخالفتها هي الطامة الكبرى، وهي الحالقة: «لا تظلمون ولا تُظلمون»، «ربَّ كلمة... تهوي به أربعين خريفا في النار»، «الفتنة نائمة لعن الله موقظها»...

من السذاجة أن نقف مكتوفي الأيدي، وأن تخرس ألسنتنا في أوان الفتن، وأن لا ندعو إلى الحق مخافة قالة الناس، وأن نعتبر العواطف والمشاعر، وقد تعيَّن واجب الصدع بالحق؛ ونحن لا نؤمن بفكرة التقاطب والتسالب: «معنا أو ضدنا»، «مع السلطة أو عليها»، «مع المعارضة أو ضدها»؛ وإنما نؤمن بمعان أعمق وأعظم وأكثر شأنًا، ولقد نسيناها في غمرة الصراع، منها: «وقولوا للناس حسنا»، «اعدلوا هو أقرب للتقوى»،

«ولا تنسوا الفضل بينكم»، «الحق أحق أن يتبع».

هذه إقامة للحجة، وقد قامت الحجة، وآن الأوان أن ننظر فيما حولنا، وفيمن حولنا؛ هل أفادتهم الفتن في شيء؟ ألم تزدهم إلا شقاء؟ ثم ألم تزد أعداءهم إلا تشفيا؟

حقا صدق رسول الرحمة عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»، مؤداها: «وإذا أسند إلى أهله، فارتقب رحمة الله».

والله على ما نقول شهيد.

الجزائر بين كفي عفريت، ولكن الله سلَّم

لا تكاد تفتح جريدة، أو تشعل تلفازا، أو تصغي لمذياع؛ إلا وتقفز كلمة «الأزمة» إلى جميع مداركك: سمعِك، بصرك، عقلك، مشاعرك.

ثم لا تكاد تَغشى جماعة، أو تخلو بصديق، أو تلقي السمع لمتحاورين على الرصيف، أو على متن حافلة أو طائرة؛ إلا وتكون الكلمة التي تجرحك بعنف هي «الأزمة»، بجميع مقاماتها الصوتية، وأشكالها اللونية.

لكن الذي يحيرني، وأنا أراقب وأعيد، ألاحظ وأحلل، أسمع وأبصر، أفكر وأقارن... الذي يحيرني أنَّ الأشد فقرا هم مَن يعاني من الأزمة، غير أنَّ الأشدَّ غنى هم الذين يركبون الهوس، فيركبهم الخوف أكثر من غيرهم.

ولقد تذكرت مالك بن نبي حين دعا للفرنسيين أن ينجيهم الله من وطأة الألمان، وعلل لذلك أننا نحن الجزائريين امتلكنا القدرة على التحمل، وأنَّ الفرنسيين تدللوا وتنعَّموا، وصاروا لا يقدرون على

أذى، ولا يصبرون على شوكة.

نعم، الغني الذي ضخَّم من مُتعِه، وكبَّر «كرشه» (بالفصحى والدارجة)، ونمَّى ممتلكاته بصورة سرطانية... الغني الذي أعلى من سقف شهواته، ولم يردَّ لخاطره رغبة... هو إنسان لم يفطم نفسه، ولم يحررها من التبعية والعبودية؛ حتى صارت له هذه النفس آمرا ولغيره مأمورا، صارت له قاهرا ولغيره مقهورا... فخسر بذلك إرادته، وفقد بعد ذلك قدرته على أن يقول «لا».

قرأت كتابا يقول صاحبه: إنَّ أعظم دواء وجب أن يتناوله الناس في هذا العصر هو جرعات يوميةٌ، صباحَ مساء، من عقار «الرفض»، ومن أقراص كتِب عليها: «لا»؛ وليس أفتك بالناس اليوم من داء «نعَم»، هذا الوبال الحُمام الذي يُعمي العيون، ويُصِم الآذان، ويدمي القلوب، ويثخن البطون، ويقهر الجسد كله بالجراحات التي لا حدَّ لها ولا حصر.

هل عرفتم مرضا سببُه المنع في عالم المترفين؟

يُجمع الكل أنَّ الوفرة هي الحالقة، وأنَّ الكثرة هي مقدمة كلِّ داء في بيوت المنعَّمين.

أمَّا الفقير، بخاصة إذا كان موقنا، صبورا، عارفا

لحدوده، مجتهدا في إرضاء ربه، غير مستسلم لواقعه.. فتجده، رغم تعقد الأزمات، ورغم تكاثف المحن، تجده رضيا مرضيا، مقدِّرا للأحداث حقَّ قدرها، لا أكثر من ذلك ولا أقل؛ عارفا أنَّ الدنيا لا تنام على جنب واحد.

لعلَّ أحسن وصفة لداء «هستيريا الأزمة» هي عبارة سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابنه: «أفكلَّما اشتهيت اشتريت».

لكن، قلة من الموسِعين، ممن رزقهم الله المال، وحباهم بما هو أعظم وأفضل من المال: الرضا؛ هؤلاء القلة، تجدهم لا يفرحون بما أوتوا، ولا يأسون إذا مُنعوا؛ هم أبدا متوازنون، ذاكرون، حامدون، شاكرون.

هذه ليست دعوة للاستسلام، ولكنه نداء لأخذ المسافة بينك وبين الأسباب، لتعالجها بحكمة وحنكة وأناة؛ وإلا فإنَّ المتعجل المضطرب، الخائف الخانع، لا يقدر على شيء، ولا يفكر صوابا، ولا يعمل حُسنا.

الجزائر اليوم، مثل باقي بلاد العالم، تقف على كفي عفريت، والأخطار المحدقة لا يمكن قياسها، والمخاطر المحيطة لا يدعي أحد التمكن من إدارتها؛ لكن أعظم أزمة، وأكبر محنة، وأسوء داهية، تقع في داخل كلِّ جزائري، إن هو صفَّى باطنه، وآمن بالممكن، وهجر

التأفف والتأسف... فسيكون لبلده قارب نجاة، وبرَّ أمان؛ أما إذا أغرق قلبه حزنا وكمدا، فإنه يستحيل إنسانا هشا ضعيفا عاجزا، وستغرق بلاده على إثره، اليوم أو غدا.

لا يعدم الزمان رجالا، ولا يخلو عصر من فحول؛ ولكن الرمد إذا أصاب العيون، والصمم إذا غشى الأسماع، والغُلف إذا أجهز على القلوب، فإنَّ المعايير تختل، وإنَّ الموازين تكسر، ويسير الناس مقلوبين، وهم يرون الأبيض أسودًا، والأسود أبيضًا...

نحن واثقون، بل موقنون، أنَّ وطننا مهما هزته من أعاصير، ومهما دهته من دواهي، فإنه سيقف على ساقيه، وسيغالب الزمان ويقهر المكان، وسيولد من رحمه قدر حليم، وغد سليم... بحول الله ولطفه، وهو الحكيم العليم.

أتذكر جيدا تسعينيات القرن الماضي، يوم كان الجميع يظن أنَّ النهار قد ولى عن الجزائر، وأن الليل قد أرخى سدوله؛ وأنَّ بلدنا لن يشهد يوما مشرقا، ولا شمسا ساطعة، وإنما سينتشر الظلام في كل الأجواء، وسوف يموت آخر جزائري بخنجر آخر إرهابي...

ثم إنَّ البعض منا راح يروّج لهذه الرؤية التي تخلط

بين الحقيقة والوهم، بين ما هو كائن وما يريد أن يكون؛ حتى قالوا: ليس ثمة في الجزائر غابة إلا وأحرقت، ولم تبق شجرة إلا وتحولت إلى رماد...

غير أنَّ الثابتين، والمرابطين على تلة الرماة، بفضل الله تعالى، كانوا رغم المحن والإحن، رغم ظهور علامات الساعة، كان الواحد منهم يغرس فسيلا كل صباح، ويعلم حرفا كلَّ مطلع شمس، ويرسل تسبيحة وذكرا كلَّ مغرب شمس، ويبسط الكلمة الطيبة الجميلة في كل ناد وواد؛ ولكأنَّه يسبح ضد التيار، أو يواجه الجاذبية وهي تهز الديار... ولكنه، بعد أمد، أحياه الله ليرى فسيله شجرا، وحرفه جملة فكتابا، وطفله رجلا فحلا...

كذلك اليوم:

ثمة من يقف على الهاوية،

وثمة من يصنع الهاوية،

وثمة من يردم الهاوية...

فاختر أخي أيَّ الثلاثة تكون... ولا ريب أن الجزائر تقف على كفي عفريت، ولكن الله سلَّم...

توقفت عند هذه الفقرة، وقطعت حبل تفكيري؛ لأتوجه إلى المسجد المجاور، بنية أداء صلاة المغرب؛

وفي الطريق وقعت عيناي على «مُنشَاتْ» جريدة من جرائد التهريج في بلدي، كتب فيها بخط أحمر، على واجهة سوداء، عبارات لو قرأها صحيح لاعتلَّ، ولو سمعها مرهف لأصيب بالصمم، ولو رآها مبصر لسارع إليه العمى...

ثم دخلت المسجد، وتلا علينا الإمام بصوته الرخيم، قوله تعالى من سورة النور: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ إلى أن وصل إلى قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾... فتبدت لي الآيات وكأنها تنزلت للتو، أو أنها نزلت لتجيب عن سؤالي وحيرتي...

فقلت: «سبحان الله، من وجد الله وجد كلَّ شيء، ومن فقد الله فَقَدَ كلَّ شيء».

فهل نحن واعون؟

أعظم خدمة نقدمها لوطننا

أعلن، وأقول، وأقرُّ، وأصارح، أنَّ أعظم خدمة، وأكبر تحدٍّ ينتظرُ إنساننا اليومَ، ويزلزل نفوسنا في هذا البلد الكريم-الجريح، وفي بلاد إسلامية أخرى (عرفناها وعشنا فيها، ثم أمَّلنا الكثير منها)... إنَّ أعظم خدمة يقدمها الواحد منَّا لبلده، ووطنه، وأهله،

وعشيره، إرضاء لربه، ونفعا لعباده، هو: العمل على إحلال «سياق خصب للتفكير، وإعمال العقل الجمعي، وإنتاج المعرفة، وصياغة الخطط والاستراتيجيات؛ مؤسَّسة على «رؤيتنا الكونية التوحيدية»، مصبوغة بصبغة «ذاتنا الحضارية»، مستفيدة من جميع التجارب العالمية الأخرى، بلا استثناء...

هذا هو الجهاد الأكبر، الإجابة عنه إجابة عن السؤال الأخطر؛ سواء أدرك ذلك الناس أم لم يدركِوا، اعترف بذلك الأقربون أم لم يعترفوا... المهمُّ أن أوَّل خطوة للرشد، في حقل العلم والعمل، هي: السياق الخصب، والتربة الصالحة، والجو المعقم، والروح الجماعية المؤيَّدة بنصر من الله تعالى...

هذا حقل جهادنا، وهذه وجهة نظرنا، والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل.

عن أي أزمَةٍ تتحدثون؟

لو أنك صادفتَ رجلا يسقي شجرة بإبريق يصبُّه من أعلاها، وهو متعلق بأغصانها المترامية، يكاد يسقط من شدة اللاتوازن؛

ثم لو أنك ألفيتَ رجلا آخر، يقلب معزته المسكينة ليجرجر لها الماء في فمها، ثم يكاد يقتلها شرقا بلا وعي منه؛

ثم لو أنك - بعد وقت قصير - صادفتَ رجلا يصف لك الأزمة في الجزائر على أنها أزمة «بترول»، و«دولار»، و«إجراءات»، و«قوانين»... ثم يؤسِّس على تلك المقدمات نتائجه، فيغرق العالمين في بحر من الهرج والمرج لا ينتهي، ويلقي على روع الناس «خوفا لا ينتهي».

لو أنك ابتليت بهذه الصور الثلاث جميعا، لاقتنعت أنه الحلم بعينه، وأن لا رابط بين صورة وأخرى؛ غير أنَّ اليقظة قد تفاجئك، وقد تخلط حساباتك، فتنتهي إلى أنَّ الصورة الأولى والثانية هي محض افتراض أو

خيال أو حلم، أمَّا الثالثة فهي واقع مُعاش، وحقيقة يوميةٌ، لا تنفك عنا ولا ننفك عنها...

هنا قد يصيبك دوار وأنت لا تدري، وقد يغمى عليك، ولا أحد يأبه لك.

إذا لم تكن الأزمة أزمة ضمير متبلِّد، وخلق متجمِّد، وأفكار متعفنة، ومشاعر متنافرة، وسلوك يوميٍّ مصطبغ بالحماقة والبلادة، وكثيرٍ من الغرور والكبرياء، مع شيء من الحيلة، وتشويهٍ للحقائق ظاهرا وباطنا...

إذا لم تكن الأزمة بهذا الشكل والصفة، فما هي الأزمة إذن؟

المعلم الذي يبرمج دروسا إضافية في بيته، ويتقاعس عن واجبه داخل القسم، جريا وراء دريهمات تخدر ضميره؛ هو الأزمة بعينها.

التاجر الذي يخفي تاريخ انتهاء صلاحية بضاعته، ليبيعها للناس مسمَّمة، بتبريرات لا حصر لها؛ هو الأزمة بذاتها.

المقاول الذي يستولي على مشاريع كبرى، ثم يتسبب في قتل العشرات من الناس، لأنه لم يتبع إجراءات الجودة والأمان، في تشييد عمارة، أو رصف طريق؛ هو الشكل الأقبح للأزمة في بلدنا.

البرلماني الذي يبيع رأيه بالملايين، فيوافق حين يُدفع للموافق بمقابلٍ، ويرفض حين يُحرم من «الكعكة» الكبيرة؛ هو رأس الأزمة، لا بل هو رأس الأفعى.

الباحث الذي ينافح عن حقه في «مخابر البحث» مالا ونقدا، وعلاوات، وتذاكر للسفر تحمله بعيدا عن حقيقة البحث العلمي الجاد، لمجرد توفير أمان لحياته ورفاه لعائلته؛ هو السم الزعاف القاتل، وهو الأزمة على شكل عقرب.

وهكذا دواليك؛ يصبح غلاء «الدولار» ورخص «البترول»، كاشفا لحقيقة الأزمة، وليس هو الأزمة بعينها؛ ذلك أنَّ الغطاء الذي يعمي أعيننا، فلا نرى الأفعى في غرفة النوم، هو في ذاته سبب من أسباب الأزمة، قد ينتهي إلى قتلنا جميعنا؛ أي أنَّ «وفرة البترول»، و«الرخاء المزيَّف»، هو الأزمة سببًا وشرطًا...

كيف ذلك؟

لو أننا من يوم استقلَّ وطننا، أخفينا بترولنا، ودفعنا الناس للعمل، ونفضنا عنهم غُبار الكسل، لنثمن ساعات العمل والإبداع عندهم؛ لو أننا فعلنا ذلك، عوضا عن «العلاوات» للإطارات وللشهداء وأبناء الشهداء وأحفادهم، وعوضا عن «المفاتيح»

للفلاحين والموالين... تحت نغمة «خذ المفتاح يا فلاح»؛ وهو القابع في المقهى، والمنتظر من السماء أن تمطر طماطم وبصلا، وبرتقالا وتفاحا...

لو أننا فعلنا ذلك طواعية، لما اضطررنا إليه اليومَ، وقبل ذلك في مرحلة الثمانينيات، عنوةً؛ ذلك أنَّ بوادر زيادة قيمة «الباريل» من البترول باديةٌ للعيان، وقد تعيدنا - إذا تحققت - مرة أخرى إلى نقطة الصفر، إذا باشرت الصعود بلا حدٍّ؛ ثم ستجدنا بعد ذلك نسرف ونبذر، وننفق على المتردية وعلى النطيحة، ولا نبالي... وقد ننسب الخواتيم لبطولاتنا التي لا توصف، وتميزنا عن العالمين كذبا وافتراء.

أنا مستبشر بالأزمة بشرط، متشائم منها إذا لم يتحقق الشرط؛

مستبشر بها إذا كانتْ لحظة فارقة في تاريخينا المعاصر، لتنقلنا من فكرة «الحق» إلى فكرة «الواجب»، من اقتصاد «الاستهلاك» إلى اقتصاد «الإنتاج»؛ من الصبر عن المتع غير المبررة، والعلاوات غير المعقولة، ومن البيوت والسكنات لمن لا يستحقها، والغرامات والضرائب لمن قرر أن يعمل مثل الناس... من ذلك كله إلى إنصاف العامل المجد، والمثابر المكد، ومساعدة المحترق حبا لوطنه في المدرسة، والمعمل، والجامعة،

والمزرعة، والبرلمان[1]...

فعن أي أزمة، إذن، أنتم تتحدثون؟

يرجى تحديد المفهوم، قبل البدء في التفصيل؛ وإلا تحول الرجل الأول صاحبَ الشجرة، والثاني صاحب المعجزة، إلى حقيقةٍ ماثلة لعيوننا، تماما مثل الرجل الثالث، دعيِّ الأزمة وبوقها، دجالها ونبيها الكاذب...

فلنتفق إذن...

(1) نثمن مبادرة الوزراء والمسؤولين، في التبرع بنسبة من أجورهم للخزينة العمومية، راجين أن يتحول إلى إجراء حضاري متواصل، وأن يعمم على جميع المجالات، كمّا وكيفا، وأن لا يكون مجرد مناورة سياسية ماكرة.

حتى لا تنفجر القنبلة في قلب الجزائر (صورة ذهنية، وتحميل للمسؤولية)

الجزائر بحضارتها وبتاريخها، بأهلها وبأرضها، بحاضرها وبمستقبلها... هي جوهرة عزيزة، وقارورة غالية؛ ليست مِلكا لأحد، وهي ملك للجميع؛ لأجلها نفدي أنفسنا وأرواحنا وأموالنا وأهلينا؛ ولا نرضى أن يلطِّخ مُحيَّاها ظالم، ونرفض أن يخدش كرامتها فاسق؛ سواء أكان من أبنائها أو من غير أبنائها؛ ولذا فإنَّ حرصنا على أن لا يأخذها التيار الجارف للفتن والثورات في العالم العربي، هو حرص يفوق الشعور والإحساس؛ إنما هو موقف إيمانيٌّ عقديٌّ خُلقيٌّ نسترخص لأجله كلَّ غالٍ، ونقبل في سبيله كلَّ محنة، ونصبر لأجله على كلِّ ضيم...

البعض يعتقد خطأً أنَّ غرداية هي القنبلة التي إذا انفجرت - لا قدَّر الله - فإنها تحدِث خسائر فادحةً في جسم الجزائر، وانفجارُها قد يعني - لا قدَّر الله - تشرذُم الوطن والبلاد، وذهاب ريحه ووحدته؛ أمَّا أنا فلا أعتقد ذلك، والصورة الإدراكية التي أحملها، هي:

أنَّ غرداية (ووادي ميزاب) بما فيها وبمن فيها، جميعا بلا استثناء، هي فتيل هزيلٌ ضعيفٌ، عُمِل لعقود على جعله «سريعَ الالتهاب»، حتى إذا دقَّت ساعة الخطر، عمَد الظالمون إلى إشعال الفتيل، وسارعوا بكلِّ أطيافهم في تفَجير البلد بلا شفقة ولا رحمة؛ غير أنَّنا لا نستوعب أنَّ ذلك الفتيل ضارب جذوره في عمق الوطن، وأنَّه ممتدٌّ في روح الأمَّة وقلبها وضميرها؛ هي منه وهو منها؛ وإذا ما سكتنا ولم نقطع اليد التي تُشعِل النار وتقدح الزناد، فإنَّ الفتيل بعد أمدٍ - لا قدَّر الله - سيصل إلى الحوض المحتوي على «المواد المتفجرة»؛ وحينها سيفتك بوطننا - لا سمح الله -.

تحميلٌ للمسؤولية: كلُّ مسلم صدوق، وكلُّ جزائري غيور؛ هو ملزمٌ لا محالة بأن يطفئ نيران اللهب: من القلوب، ومن الألسن، ومن صفحات الفايسبوك، ومن مونشات الجرائد، ومن أرض الواقع، ومن جبهة الصراع؛ والجميع مأمورٌ شرعا وعقلا أن يرفض دعاوى الفُرقة والافتراق، بأيِّ مسمًّى كان، وبأيِّ صفة جاءت...

وأنا أعد الله تعالى، وأشهده سبحانه، ثم أشهِد خلقه، أني أومن إيمانا مطلقا بوطني، وببلدي، وبحضارتي... وأقف ما استطعت عمري، ومهجتي، لفتل خيوط المحبَّة بين الناس جميعًا... وأرفض إقصاء

أيٍّ من أبناء الجزائر، مهما كان لونهم ومشربهم؛ إلاَّ مَن «تولَّى كبرَ الفتن»، ومن عقد العزم على «إضرام النيران في كلِّ مكان»؛ فإنه عدوٌّ لي، وقبل ذلك هو عدوٌّ لله، وللرسول، ولدين الإسلام، وللأمَّة جميعا...

هو موقف يستلزم عملا، وليس مجرَّد كلام يقال ويكال، والله على ما أقول شهيد: ألا فلتشهدوا، ألا فلتشهدوا، ألا فلتشهدوا...

ما الذي يقع في غرداية؟ (الاستثمار في المجهول)

تناولت وسائل الإعلام، بمختلف مستوياتها ومشاربها وتوجُّهاتها، الأحداث الأليمة في غرداية، والتي أودت بحياة أكثر من عشرين مدنيا، جُرِح فيها المئات، وأحرقت مساكن ومحلات وسيارات، ثم أحالت البلد إلى نار وجحيم دائم؛ ولا شكَّ أنَّ توصيف ما حدَث يتكرَّر ويتردَّد بصيغ مختلفة، لكنَّ المؤكَّد هو أنَّ «مساحة المجهول باتت أكبر بكثير من مساحة المعلوم»، وأنَّ الكثير من المتغيِّرات تجمَّعت مثل روافد صغيرة، لتتحوَّل إلى فيضان ماحق، وليس أيسر على المرء من أن يشير إلى «سبب واحد» أو «رافد واحد»، فيحمِّله جميع الشرور، ويزوِّر لذلك الحقائق، ما دام الناس يجهلون أبسط المعلومات، وما داموا على استعداد لتقبُّل أيِّ توجيه وأيِّ فكرة، مهما بدا عوارها وهزالها، وما دامت وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام سلاحا فتاكا يلعب به الصغار.

ما سبب الفتنة؟ وهل هي محلية أم وطنية، أم أنها

توجَّه بيد خارجية؟ ما دورُ السلطة الحاكمة، والدولة، والحكومة، وأجهزة الأمن، والعدالة... وغيرها من مؤسَّسات الدولة، في هذا الشأن؟ وما حدود قيامها بالواجب، وما حدود تقصيرها؟ ولماذا تركت الفتنة تتعفَّن إلى أن تبلغ هذا المستوى الخطير؟ ومَن المستفيد منها في الأخير؟ وما مصير غرداية، ومصير صحراء الجزائر، ومصير الجزائر، بعد هذه الأحداث؟ وهل ما نشهده هو بداية أم هو النهاية؟

جميعها أسئلة تتخبط حولها الأخبار، وتختزل في شأنها الآراء؛ والحقيقة أنَّ «تراكم» هذه الأسباب، وعدم معالجتها في أوانها، وغيابَ أدنى صورة للحاضر وللمستقبل، وانعدام أدنى رؤية مجتمعية أو سياسية معقولة؛ ومرور المنطقة بمساومات سياسوية من «عهد الحزب الواحد»، إلى عصرنا اليومَ؛ كلُّ ذلك أزاح فرص الخروج من المأزق، وطرح بديلا عنها فكرة «طيِّ الذراع»، والتهديد العموديِّ والأفقيِّ في كلِّ منعرج، وأدخل غرداية في متاهات لا حصر لها.

ولكن، ثمة ثوابت لا نتنازل عنها، ومنطلقات لا نحيد عنها، مهما تعالت أبواق المفسدين، ومهما خلط الأمرَ المرجفون، وهي:

- إنَّ ثقتنا في الله سبحانه وفي رحمته لا تتزعزع،

ولا يغادر شفاهنا دعاء الاستغاثة منه، ودعاء اللجوء إليه سبحانه: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، «**ربِّ إني مغلوب فانتصِر**»...

• إذا خسرنا دنيانا بفعل فاعلين، فإننا بحول الله تعالى حريصون على أن لا نخسر أخرانا، بل حرصنا أن نحوِّل كلَّ ما يطالنا من ظلم معبَرا إلى رضا الله تعالى، وإلى الفردوس الأعلى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

• كلُّ ظالم سينال جزاءه من الله تعالى المقسِط العزيز المنتقم، وليست غيرتنا على الحرمات وعلى الأرواح بأكثر من غيرة الله تعالى عليها، ولا نشكُّ أبدا أنَّهم سيكونون عبرة لكلِّ معتبر: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾.

• نحن مسلمون، على المذهب الإباضيِّ، معترفون بإسلام جميع من كتب الله تعالى له أن يولد على مذهب آخر، ممَّا ليس للإنسان فيه خيار؛ وأيُّ محاولة لتكفيرنا أو إخراجنا من الملَّة السمحة، سيبوء إثمها صاحبها، وستعود عليه كما وعد الله سبحانه. فلا أحد مهما كان يستطيع أن يساومنا في ديننا وإيماننا، ولا نساوم أحدا في دينه وإيمانه.

• نحن جزائريون، ولدنا أمازيغا، كما ولد غيرنا

كلٌّ على عرقه: عربًا، وطوارق وغيرهم، إذ العِرق ليس ميزة لأحد ولا عارا على أحد، وإنما هو قدَرٌ مقدور من الله الحكيم العليم، ليمتحننا في تقبُّل ما أمر به، ونبذ ما تأمرنا به حميتنا وعصبيتنا، فلا نعيِّر أحدا على عرقه، ولا نخجل من عرقنا، ولكننا نرضى بما قضى الله علينا وقدَّر، وتلك حلاوة الإيمان.

- نؤمن بوحدة وطننا الجزائر، وليس لأحد أن يشكك في وطنيتنا، كما لا نشكك في وطنية أحد؛ ونحن الدرع الواقي لهذه الوحدة، كما أنَّنا الحلقة الأصعب والأكثر تعقيدا، ذلك أنَّ العدو يخطط للكثيرين حتى يقصونا، ويخطط لنا حتى نجد أنفسنا معزولين، لكن للأسف يبقى بعض القائمين على سياسة الوطن في غفلة من خطورة الأمر، يردد الكثير منهم خطابات وشعارات جوفاء فارغة، لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

- أن ترخُص دماؤنا ودماء أيِّ مواطن جزائريٍّ مسلم، هذا ما نرفضه كلية، ونقف أمامه بشدَّة، ونحاربه بقوَّة، ونسأل الله العليَّ الحكيم أن يعيننا على ذلك وهو «ولي الصالحين».

- نحن نعي ونستوعب مدى تعقد العصر، وأنه مختلف عما مضى، وأنَّ السلطة لم تبق بيد جهاز بعينه، وإنما توزعت عبر وسائل للإعلام عالمية،

ووسائل للاقتصاد، وأخرى للمعرفة... وكذا عبر مراكز للبحث والتخطيط، لها اليد الطولى في كثير مما يعانيه العالم بعامة، والعالم الإسلامي بخاصة؛ وأيُّ اختزال للحكم ما هو إلا ذر للرماد على الأعين، وغفلة حيث لا تنفع الغفلة.

- لا بدَّ من اتخاذ جميع الأسباب المأمور بها شرعا، ذلك أنَّ اتخاذ الأسباب لا يناقض التوكل على الله سبحانه، والأسباب يد الله في قدره، فليس من الحكمة ردُّ يد الله وطلب ذاته بالدعاء مثلا. فأول الدعاء الاستجابة العملية لله العلي الحكيم.

- لهذا اليوم غده، وللغد ما بعده، ولا بدَّ لليل أن ينجلي، وللصبح أن ينفلق، فكلنا توجُّهٌ إلى الله أن يقصِّر عمر الشرِّ، وأن يديم العافية، ويزيل أسباب الفرقة والفتنة، وينتصر للحقِّ وأهله.

هل سنبقى مكتوفي الأيدي؟
مقتل أبناء لنا في عين الدفلة[1]

لا يكاد جرح من جراحات بلدنا الجزائر يندمل حتى تتسلل أياد خفية، لها سطوة الفساد والإفساد، ولها القدرة على خلط الأوراق والحسابات؛ لتنكأ الدمامل من جديد، فتسيل الدمَ والقيح على جسم هذا الوطن المكلوم؛ وها نحن هذه المرَّة ننعى شبابًا يانعًا من أبنائنا الخيرين الطيبين، الساهرين على سلامة وأمن البلاد والعباد، ليُقتلوا غدرا، ويحرموا هم وأهلهم، بل وجميع المحبين لوطنهم... يحرَمون حرارة العيد، وفرحة العيد، وليحركوا في الأعماق أشجانا وحزنا؛ ولا يكاد الخاطر يغادر صورة أمهاتهم وآبائهم وأهليهم جميعا، وقد وصلهم النبأ وهم على حال الاستعداد للاحتفال بفرحة العيد؛ ثم تتحول الفرحة حزنا وبكاء، ونحرم مرة أخرى الحق في الحياة وفي العيش مثل باقي البشر.

(1) تعرّضت مفرزة للجيش الوطني الشعبي لإطلاق نار من طرف مجموعة إرهابية، استشهد فيه تسعة عسكريين وجرح اثنان آخران، وقد وقعت الحادثة بتاريخ: 17 جويلية 2015.

بغض النظر عن المجرم، ولعل المجرمين كثر؛ فإنَّ الضحية معلومة، هي هؤلاء الشباب الأحبَّة، وهي كل واحد منا، ممن يرجو السلامة والأمن لوطنه، ويرفض التلاعب بمصيره، وزرع الحقد والتكفير والظلم بين ثناياه.

ولذا فإن السؤال الجدير هو:

هل سنبقى مكتوفي الأيدي؟ وإذا تحرَّكنا، ففي أيِّ اتجاه؟ وكيف نضمن نجاعة حركيتنا؟ وما هي السبل التي تبلِّغنا المقاصد بلا انحراف ولا انجراف؟ وما هي عاقبة السكوت والسلبية علينا جميعا، فُرادى وجماعات؟ ومتى ينتهي هذا المسلسل الشنيع القذر؟ وعلى يد مَن؟ وكيف نخرج بحول الله تعالى من هذه المحن سالمين، أكثر قوة وصلابة وعزيمة ووعيا؟

هي جملة من الأسئلة القلقة، حتى لا يدخل هؤلاء الشهداء المغدور بهم في قائمة النسيان، وحتى يستيقظ الوعي والرشد فينا، مهما كاد الأعادي، ومهما ظلموا وطغوا وتجبَّروا...

فإنا بحول الله صابرون صامدون عازمون، وتعازينا لأهليهم، ولكلِّ جندي من جنودنا المرابطين، ولكلّ جزائري غيور على بلده وعلى قيمه...

والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل...

فتنة اليمن وأخواتها: عقيدة واضحة، وقاعدة صادقة

إنَّ القارئ البصير لكلام الله تعالى، لَينتهي إلى عقيدة واضحة وضوح «شمس الضحى»، ثم يصوغ منها قاعدة كلية في قيام الأمم والحضارات لا تتخلَّف أبدا، ومفاد هذه العقيدة وتلكم القاعدة هو:

أنَّ الصراع إذا كان بين حقٍّ وباطل، فلا يطول أبدًا؛ لأنَّ الباطل زهوق.

وإمَّا أن يكون صراعًا بين حقَّين، فذلك لا يوجد؛ لأنه لا يوجد في قضية واحدة حقَّان يتصارعان، وإمَّا أن يكون بين باطلين، وذلك هو الصراع المشهود الذي يطول ولا ينتهي أبدًا؛ لأنَّ أحد الباطلين ليس أولى بأن ينصره الله عَزَّوَجَلَّ على غيره، فيظلُّ الصراع طويلًا»

وفحوى القاعدة أنك «إذا رأيت معركة بين طرفين ولم تنته، فاعلم أنَّ الصراع فيها بين باطل وباطل».

لو فتحتَ جهاز التلفاز، أو شبكة الأنترنت، أو

تصفَّحتَ الجرائد والمجلات، فإنك ستخرج بحكم واحد على الفتن التي تنخر عالمنا الإسلامي منذ عقود، وهو أنَّ الناس فقدوا معايير الحكم، بل حتى المنسوبون إلى الفقه بات الكثير منهم «فتنةً للناس» عوض أن يكونوا حكَما عدلا، وصوتا للصلح والأمن، وهُداةً للناس؛ فاختلط حابل الناس بنابلهم؛ وتقوَّل المتقوِّلون، وبتنا نجد الحكمة في أمثال «ميشال كولون، ونعوم تشومسكي» وبعض العلماء غير المسلمين، ونفتقدها في الكثير من العلماء المنتسبين للإسلام والقرآن للأسف، وكثيرون منهم من أهل المصالح والمناصب، المتملقون للحكام والملوك والأمراء.

الحقُّ أنَّ طول الصراع بين «فصيل وفصيل» في ليبيا، أو بين «دولة وحركات مسلَّحة» في سورية، أو بين «حركات مذهبية وأخرى» في العراق، أو بين حركة فتاكة ومجموع دول متحدة في التقتيل، على رأسها السعودية، في اليمن... وكذا مصر، والجزائر، وتركيا... وغيرها كثير.

إنَّ طول الصراع والفتن يدلُّ على أمرٍ واحد، وهو أنَّ القتال إنما يجري بين «باطل»، و«باطل»، وللأسف كلا الباطلين يسعى إلى كسب ودِّ دول غربية، وجهات دولية، ويولي ظهره لقيمه ودينه وحضارته؛ وهي أحيانا

دولٌ وهيئات دولية تغازل هذا، وأحيانا أخرى تقف إلى جانب نقيضه؛ ذلك أنها تتلوَّن مع مصالحها - وهي في منطق السياسة محقَّة - تلوُّن الحرباء، ولا يعنيها إلاَّ الحفاظ على أرواح مواطنيها، وكسب خيرات البلاد التي يتدخلون فيها، وخارج ذلك «ليذهب الكلُّ إلى الجحيم».

فلا روح الأطفال والنساء والعجائز، تهمُّ المتقاتلين، والمساندين؛ ولا كرامة الأمة وسيادة البلاد؛

مِن هنا بتنا نحار، ونحار، ونبحث عن «جهة واحدة» تتحمَّل مسؤولية الحقِّ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: 104].

فإذا ما فتح الله على الأمة بهذه الفئة المباركة، شمَّرنا على ساعد الجدِّ، وساندناها، ثم وقفنا إلى جوارها، وعملنا على نصرتها، ودعونا الله لها...

لكن، إذا عدِمنا هذه الجهة وهذه الفئة الصالحة المصلحة؛ فإننا لن نلطخ ألسنتنا، ولا أقلامنا، ولا أرواحنا، ولا صحائفنا.. بدماء المسلمين، ولا بأعراضهم؛ ولن نبني حُكما على ظنَّة، ولن نقول في الفتن بهتانا وزورا، ولن نحمِّل أنفسنا جريرة الأنفس

والمجتمعات، ظلما وعدوانا...

غير أنَّا نفتقد للكثير من الحكمة والحنكة والتثبت... للأسف. فلنتق الله، ولنطلب رضاه، ووجهه الكريم.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل... ولا نملك إلاَّ أن نثبِّت القاعدة الكلية، والمعيار العقديَّ القرآني، ونثبُت عليها علما وعملا، وهو أنك، أخي:

«إذا رأيت معركة بين طرفين ولم تنته، فاعلم أنَّ الصراع فيها بين باطل وباطل».

فاحذر أخي أن تكون أنت الباطل، أو تكون طرفا ضمن باطل، أو سندا ويدا لباطل، أو لسانا، أو قلبا ...

رمضانُ، بأيَّة حال عدتَ يا رمضانُ؟!

رمضانُ، بأية حالٍ عدتَ يا رمضان... بما مَضى، أم لأمر فيك تجديد؟

هي صيغة معدَّلة من بيتٍ للمتنبي، غيرُ موزونة مثلما عصرُنا غير موزونٍ؛ لكنَّها صادقة لو تأمَّلناها بعمق ورويَّة؛ ولو حاول كلٌّ منَّا أن يجيب على السؤال خارج النمط والمألوف... لو فعل ذلك لوجد أنَّه حيال سؤال وجوديٍّ، يحاصره ويلاحقه في عقله وقلبه وضميره، ليعتصر المعنى من عالمه الجواني، ويشكِّل المبنى من أغوار ذاته الكثيفة...

تُرى، هل من جديد فوق الأرض وتحت الشمس؟

أم أنه القديم يلمَّع ويزوَّق بلا كلل ولا ملل؟

أم أنَّ ثمة جديدا لم يصادِف رهافة الحسِّ فينا، فغادر من الباب الذي دخل منه؟

أم أنَّنا في أمر ووضع مختلف، لا يُنتظر منه الجديد، ولكن ينتظر منه الحفاظ على الموجود والمعهود؟

أمَّا القدَر، فلا اعتراض عليه مِن قِبلنا: رضانا به هو منبع الخير فينا، وهو مصدر الحركة منَّا، وهو مبتغى الاجتهاد لدينا؛ لكنَّ المقدور هو الذي يؤرِّقنا، والمقدورُ هو محلُّ التكليف في حُسباننا، وهو موطن السؤال الحضاري المصيري في تصوُّرنا... فهل أدَّيناه حقَّه ومستحقَّه؟ وهل بلَغنا فيه الوسع وانتهينا به إلى حدود استطاعتنا؟ أم أننا تقاعسنا وتكاسلنا وتوسَّلنا، واغتررنا بالأماني، رأسِ مال المفاليس؟

أبصرتُ شعاعَ الأمل من آخر النفق في جوف ليلٍ بهيم، رأيتُه رأي العين لا أماري فيه ولا أهيم؛ نعم أُخيَّ، رأيته رأي العين، وما أنا بمسحور ولا متوهِّم ولا أثيم... رأيته، ورأيت قُبالته جمهرةً من الأشياء (هم بشر، أو يشبهون البشر، لا أتذكر) يُجهدون أيديَهم وأرجلهم طيشًا، ليوقِفوا دفقَ النور وجهة بلدي، وأرضي، ومغنى صباي ومرتعي... مثلَ قردة خاسئين، يلوِّحون بكلِّ عضوٍ مِن أجسامهم المترهِّلة ليوهموا مَن خلفهم أنهم هم من يصنع الغد، وأنهم هم من يبني المستقبل...

عبثًا يفعلون، لغوًا يحاولون، سفهًا يستوهمون...

لا يعنيني اليومَ أمرهم، فقد افتضح سرُّهم، وبدت للعالمين عورتهم... لا نعرفهم بالاسم لكن بالرسم،

وإنَّا لنتشمَّمهم في لحن القول، وفي لحظ العين، ونفضحهم في مشيتهم وهرولتهم، ونزقهم وسفههم... نعم، نحن نعرفهم، وهم لا يعرفون...

الذي يعنيني هو مَن يقف متفرِّجا، هنالك خلف الجمهور، إذا صفَّقوا صفَّق، وإذا صفَّروا صفَّر، وإذا مكَوا مكا، وإذا صدُّوا صدَّى... يقف باردا، لا لون له، لا رأيَ، لا موقف، لا قول، لا فكرة، لا مبادرة... هؤلاء الذين أعنيهم بكتابي، وهؤلاء الذين يُدمون قلبي، ويجرحون كبدي... وقد أكون أنا واحدا منهم، أو لعلِّي أمثلهم طريقة، وأشدهم غيابا وغيًّا...

اليوم أتحيَّن الفرصة لأخاطبهم، وأدعوَهم، وقد عاد رمضان هذا العامَ بأحسن مما كان عليه البارحة، بل منذ أعوامٍ؛ على الأقل في دائرة بلدي الجزائر... وقد ارتفع عنها كابوس الفتنة، ولو إلى حين... أتحيَّن الفرصة لأدعوهم إلى ثورة بيضاء بياض ديني، خضراء خضرة وطني...

ثورةٍ لا تستدعي الحمرة إلاَّ لتزين بها العلَم، ولا تقبل السواد إلاَّ في الخال وعين العين...

ثورةٍ تجهل معنى الحق، وتعي معنى الواجب... تلامس الأفق الملائكيَّ بالعلم النافع والعمل الصالح...

يمارسها رجال ونساء من طينة خيرة، ومن نفَس أصيل...

رجالٌ ونساءٌ لا يعرف المستحيل إلى إرادتهم منفذا... يجهلون أشكال الهدايا، والأجور، والعلاوات، والمناصب، والنياشين... ويفهمون جيدا لغة الأجر، وبيان التقرُّب إلى الله، وبلاغة الحشر مع مَن تحب، من لدن رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى يوم الناس هذا...

هي دعوة، وهي زفرة، وهي إشراقة أمل، وتحريك عمل...

هي الجواب الشافي والكافي عن سؤال مضى وقضى: رمضان، بأية حال عدتَ يا رمضان؟!

عيدكم وعيدنا... ضمير العيد، إذا كان لعيدنا "ضمير"

أُلِف الناس أن يوظفوا ضمير المخاطب في صيغة الجمع «عيدكم»، ويضيفون إليه وصفا مثل «سعيد» أو «مبارك»؛ ثم يأتي الجواب بنفس الصيغة مخاطَبة وجمعا، متحرين في ذلك أن يردوا التحية بمثلها أو أحسن منها؛ وما في ذلك من غبار ولا حرج.

لكن، حين يوقفك «سوري» أو «ماليٌّ» أو أيٌّ من الأطفال أو النساء أو الرجال الذين غادروا الأوطان قهرا، وسكنوا جنبات الطرق في الجزائر الواسعة خفية أو علنا، سرًّا أو جهرًا... حين يرمي فرد من هؤلاء إحدى يديه من خلال نافذة سيارتك، ويرمقك بعينيه الفاترتين، ثم يبتسم لك تكلفا واضطرارا؛ سائلا منك «درهما أو دينارا»؛ ويقول لك بصوت متدحرج: «عيدكم سعيد»...

حينها فقط يخيرك بين أن تجيبه عادةً مثلما تجيب أيَّ إنسان آخر من بلدك وأهلك، فتقول له: «وعيدكم سعيد»، وقد تبالغ فتقول: «وعيدكم أسعد».

لكن، لو أنك أجبته بوعي، ولو تأملتَ كلماتك وعباراتك وما تحمل من دلالات وأبعاد؛ ثم حركت شفتيك لتجيب، فهنالك فقط ستفر منك الحروف، وستجمد في حلقك العبارات، وستخنقك العَبرات؛ وستسكت ثم تصمت، ثم لن تجد ما تقول، أو في أقل تقدير تعدِّل جوابك حسب السياق، فتجيبه متألما حزينا: «فرج الله عنكم»، «أبدلكم الله بما أنتم فيه عيدا أكثر أمنا وسلاما واستقرارا»...

هنا، مرة أخرى، ينشطر المسلم إلى «نحن» و«هم»؛ ويتوزع العيد إلى «عيدنا» و«عيدكم»، وتتجزأ البلدان إلى «بلدنا» و«بلدكم»، وتتباين الأحوال بين «حالنا» و«حالكم»... ثم لا يلبث المرء أن يتذكر أو يستعيد إلى شعوره آيات كثيرة في وحدة المسلمين، وأحاديث لا تحصى في أخوة المسلم للمسلم؛ آيات وأحاديث جميعنا يحفظها، وكلنا يعظ بها؛ ولكن الكثير منا يوجهها إلى «الأخوة بيننا نحن» غير المبتَلِين، ولا تعني بأي حال من الأحول «الآخرين من المشردين والمعذبين»... أولئك «هم... هم»؛ أما «نحن... فنحن» وكفى...

ثم حين يتصل مسلم من أبناء السلطة، جنديٌّ أو إطار أو حتى موظف أو عالم؛ بمسلم آخر من بلده،

ولكن من جهة المعارضة، وغالبا من صف المحاربين والمقاتلين «لتحرير البلد» من الأولين؛ حين يتواصل هذا وذاك، أو حين يتلاقيان عبر وسائل الإعلام صدفة، أو عنوة، أو لأنهما أصلا من الأقارب والأرحام؛ حين يتم ذلك يوم عيد؛ فإنَّ الواحد منهم لو استطاع أن يستجمع الكلمات كلمة كلمة، ويصفُّ الحروف حرفا حرفا، كصف الحروف المعدنية في القديم؛ وحين ينطق بعد جهد جهيد تحيته المعهودة: «عيدكم سعيد»...

هنا يصير للضمير معنى آخر؛ فمن المخاطِب؟ ومن المخاطَب؟

وهل يتمنى أو يرجو لعدوه-قريبه، لمحاربه-ابن بلده.... هل يود له سعادة في عيده هذا؟

أم أنه قبل أن يرمي بالعبارة أفرغها من محتواها، واستحالت في فمه هواء لا غير... ثم ضربه بها وانتهى؟ ولو أنه استطاع لرماه بمسدس أو قنبلة وقضى عليه...

ويأتي الرد من الطرف الآخر: «وعيدكم سعيد»...

ولكن، أي عيد يقصد، وأي سعادة يعني؟

وإذا ما توجهنا شرقا وجهة خليج العرب، وحاولنا تسريب مكالمات «أمراء وسلاطين وولاة العهد» في تلك البلاد، والواحد منهم يهنئ جاره، كما تقتضيه

المراسيم الدبلوماسية؛ فإننا سنقع في حرج، لو «تصنتنا إلى الملك سلمان بن عبد العزيز مثلا، وهو يهاتف الأمير تميم بن حمد ليهنئه بمناسبة العيد الجديد...» كيف لا وهو منذ سنوات يفعل هذا، بفعل مشروط روتيني لا يتبدل ولا يتغير...

فهل سيقول له: «عيدكم مبارك»؟ وهل يرد الآخر بعبارة: «وعيدكم سعيد»؟

فأي عيد هذا الذي يبارك الله فيه، والجار يقضم جاره (تناوبا، ومن الجهتين)؟ ثم إن الواحد منهم اليوم، في خليج عربنا، يعقد صفقات مع نفس الدولة، ونفس الشركة، لشراء السلاح بمئات الملايير من الدولارات... تحسبا وتعقبا لحرب تشعل أوارها أدنى مناسبة، بين هذه وتلك، بين بلد مسلم وآخر مسلم... بل من نفس البيت والمذهب والعرق والأصل والفصل...

ثم، هل نأمن مثلا اليومَ، العلاقة بين مصر والسعودية؟ أو بين البحرين والإمارات؟ أو بين الجزائر وليبيا؟ والحال أنَّ المواطن البسيط اليمنيَّ، تأتيه تحية العيد من أرض القبلة التي يصلي وجهتها، تأتيه على شكل قنابل تدمِّر، وطائرات تقصف، وصواريخ تُبيد...؟

هل نأمن أن يتغير الأمر غدا أو بعد غد، إلى حرب أخرى، تحت مسمى آخر.... ثم يأتي العيد، ولا عيد... ونعيد معاني لو وعيناها لتغير وجه العالم، ولكن لأننا خذلناها وأضعناها فإنها تنتقم منا، وتهزأ بنا، وتتركنا بلا بوصلة ولا وجهة...

كل ما في الأمر أن نعيد التفكير في «ضمير» العيد، إذا كان لعيدنا «ضمير»؛ فإذا قلنا «عيدكم سعيد»، وإذا قيل لنا: «وعيدكم مبارك»... كان لهذه الكلمات الثقيلة وزنها وقدرها، هنالك فقط يحلو لنا أن نرسل التهنئة بالعيد، ونقول: «عيدكم سعيد، ومبارك، أدامه الله عليكم...»

ثم يأتي الجواب: «وعيدكم أسعد، وأبرك، وأدوم...»

مفارقة الحضور والغياب (في وسائل التواصل الاجتماعي)

بمبادرة من أحد الإخوة الكرام، فُتحت لي صفحة في الفايسبوك، وشكرتُ للأخ صنيعه؛ ثم نشرتُ في غضون أيام، ما تقرأون؛ غير أني أسجل هنا مفارقة، أجد من الواجب على الفكر الإسلامي أن يوجد لها حلا علميا-عمليا. وهي:

أن الوسائل التي صُنعت في الغرب بعناية، تحوَّلت إلى غايات، وتغلبت على الحقائق، فانتشر اللغو بمدلول: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

أن الفكرة الإسلامية الأصيلة، بكل أطيافها، لا تملك من الوسائل ما به تحقق الحضور الفعال، بين جمهور الشباب بخاصَّة.

ولقد صارت المعلومة بفعل وسائل التواصل الاجتماعي، أهم من الحدث نفسه؛ فالذي ينشر صورة، أو يعلق، أو يطالع حدثا؛ يتحول إلى «ذاتٍ حاضرة»، وأحيانا تستغول وتمسخ «ذاتا منتفخة»؛ تتوهم أنَّ من لم يصنع صنيعها يعيش الغياب، وأنه متأخر عن عصره.

فهل يا ترى، تتوجب مجاراة هذه الوسائل؟ أم الواجب هو مقاطعتها؟

طبعا، لا هذه ولا تلك؛ ولكن كيف السبيل إلى تحقيق البديل الجدير، وإلا - شئنا أم أبينا - سنخسر الرهان مرة أخرى، وستغزونا الحماقة في عقر دارنا، وقد فعلت، مرة أخرى، وسنبقى متفرجين مبهورين، مرة أخرى...

وما بعد الفايسبوك، سيكون للأنستغرام، أي الحضور المباشر، بالصورة، أثر خطير على خصوصيتنا، وعلى عالم الواقع عندنا؛ فنصير موظفين مجانيين، لوسائل، لا تحمل بالضرورة نفس الاهتمامات التي نحملها.

الموضوع، يجب أن يناقش بمسؤولية كاملة، لا بمنطق الجدل؛ فكل منا مسؤول عند الله تعالى؛ ثم إن التشاؤم، والاختزال، مما لا يخدم الفكرة... فهلا كنا فعالين في معالجة قضايا عصرنا؟

القرعجة

حين يصوغ الشارع مصطلحا فإنه غالبا ما يكون صادقا، ما لم يأت من تأثُّر بجهة خارجية فجَّة، أو بوضع غير طبيعي مزيَّف؛ ذلك أنَّ «**العفوية وعدم التكلُّف**» سببان مِن أسباب «**الصدق**» خلقا، وشرطان من شروط «**الصدقية**» منهجا؛ ولذا كان لزاما على المثقف أن يتعلم الإصغاء لما يقوله من ألفَ أن يسميهم «**العامة**» في مقابل «**الخاصة**»؛ حتى وإن كان لنا اعتراض على هذا التصنيف، ليس هذا المقال مجال البسط فيه.

في اليوم العالمي لذوي الإعاقة، الثالثِ من ديسمبر 2016؛ نظمت «**المدرسة العلمية**» يومًا دراسيًّا، حضره ثلة من الأساتذة المتخصِّصين في الإدماج وفي مسائل المكفوفين بالخصوص؛ ولعلَّ الأستاذة الدكتورة يمينة غسيري، ومرافقتيها من مخبر الدراسات النفسية الاجتماعية، جامعة محمد خيضر، ببسكرة؛ وكذا الأستاذ دحمان مطاري، من قسم «البرَايْ» بالمكتبة الوطنية في العاصمة؛ لعلَّ هؤلاء كانوا فرسان هذا اليوم، بقيادة الأستاذ حمزة معمَّر، مسؤول قسم «بنور

الله يبصر»، في المدرسة العلمية بالحميز.

الذي يعنيني في سياق هذا المقال، ليس التقريرُ لليوم، ولكن التنبيهَ إلى مصطلح سمعته لأول مرة من الأستاذ مطاري، الذي كان عفويا، صريحا، دقيقا، واضحا... حتى أرغمنا أن نستمع إليه مشدوهين، ونتعلم منه معترفين... وهذا المصطلح هو «**القرعجة**»، وقد ولَّده من الدارجة الجزائرية، التي يقال فيها عن أحد يَصدر منه هذا التصرف: «راه إقرعج».

يبدو أن صيغة «القرعجة» تأتي من «القرعة» أي القارورة، كأن صاحبها يملأ القارورات فراغا ووهما؛ والذي يعنيني أنَّ معناها ينصبُّ على «**مَن ينفخ نفسه، ويُظهر للناس أنه يعرف أكثر مما يعرف على حقيقته**»؛ فمثلا، الذي يكلمك في الطب، وهو جاهل فيه، بألفاظ كبيرة محفوظة، يقال عنه «راه إقرعج»؛ وكذا في جميع المجالات.

ويذكر الأستاذ مطاري أننا في الجزائر، حين يَسأل كفيف أحدا:

«إلى أين تتجه الحافلة التي دخلت المحطة الآن؟»،

لا يكون جوابه: «إلى رويبة، مثلا»،

وإنما يكون الجواب: «وين راك رايح؟» أي «إلى أين أنت ذاهب؟»...

فهذا التصرف منه هو عين «**القرعجة**» بلغة الأستاذ.

ولو ساءلنا أنفسنا عمَّا يقال وما يكال حول «الأزمة» في الجزائر، هذه الأيام: من يعرف فيها، ومن لا يعرف؟ والذي يعرف، ما الذي يمكنه أن يضيف أو يغير؟ ومن يدرك الأسباب والمقدمات؟ ومن يكتفي بالوصف، والتقعيرات؟

الحق أنني أتعجب من بعض الناس، في سيارة طاكسي مثلا، أو حول طاولة الحلاق أو الطبيب، أو على متن الحافلة... كم من إنسان أسمعه وأتعجب منه، وهو يقول كلَّ شيء، ويملأ فاه بالكلمات الكبيرة، ثم يعلي صوته «**بوثوقية**» لا نظير لها، فيدلي برأيه مفندا جميع الآراء، ويجعل من جهله محورا لتفسير كلِّ ما يجول في خاطر الناس من مشاكل عبر العالم...

وهكذا، دواليك، مِن عادات لا حصر لها، تنبئ عن «**خفة في العقل**» لا تقاوَم، وعن «**سذاجة في الفكر**» لا يُحسَد عليها؛ ولكني لا أجد الصفة الجامعة المعبرة عن هذا التصرف، بخاصة أيامنا هذه، إلى أن هداني الله إلى الصيغة الرائعة، على لسان الأستاذ مطاري: «**القرعجة**». ولا أملك إلاَّ أن أشكره على ما علمني.

للأسف، لا يقتصر الأمر على الشارع، ولكن، كم من «**صحفي متعجل**»، وكم من «**خبير محلل**»، وكم

من «**ضيف في حلقة**»، أو «**متناحر على طاولة النقاش الساخن**»، وكم من «**سياسي هاو**»، وكم من «**مشتغل بالعلم مبتدئ**»... كم من هؤلاء وغيرهم، لا تسمع منهم إلَّا «**القرعجة**»، فهم بالتالي «**يقرعجون**»، وهن «**يقرعجن**»... لا علم، ولا تحقق، ولا التزام، ولا ضمير...

وهكذا، كما قالت الدكتورة غسيري: «**جعجعة ولا طحين...**»

فهل الأزمة ستجد الجواب على يد أمثال هؤلاء، مهما كثر عددهم، وعلا صوتهم؟

أم أنَّ الحلَّ سيكون نتيجة حتمية ممن «**يزن كلامه**»، وممن «**يتحمل مسؤولية قوله**»، وممن «**يخشى الله فيما يلفظ من قول**»، وممن «**يعرف قداسة الكلمة وخطورتها**»، وممن «**يترجم فكره إلى فعل**»، وممن «**يجعل قوله شاهدا له أو عليه...**»؟

العاقل لا يحتاج إلى جواب، فالجواب على مرمى بصر، بل هو أقرب من ذلك...

لو وعينا أنَّ الأمر جد، وليس بالهزل؛ وإلا فمرحى «**بالقرعجة**» بديلا، إلى يوم يرشدون!!!

حديث المغازل وحديث المهازل

من الأمثال السائرة في الأدب الشعبي قولهم بالدارجة: «لـحْدِيث والـمَغزل»؛ أي أنَّ اللسان وهو يغزل الكلمات ينبغي أن يرافَق باليد وهي تغزل القطن أو الصوف، أو تنجز أي عمل مهما بدا هيِّنا؛ ولقد ورد في التراث الفكري عن بعض العلماء أنه كان يخطط «تقطيع الكاغط» و«دق الحبر» لجلسات الحديث مع مَن حوله من الناس، حتى لا يضيع منه الوقت هباء منثورا.

ولو حوَّرنا هذا المثل بعض الشيء لِيلائم عصرنا هذا لقلنا: «لحديث والمهزل»؛ ذلك أن المجالس باتت للكلام المسترسل، تُعرف بدايتها ولا يدري أحد ما نهايتها؛ قفزٌ من موضوع إلى موضوع، بلا رابط، أو لمجرد رابط لغوي، أو جزئي؛ كأن يكون الحديث عن الاقتصاد في الجزائر، فيرد ضمن الكلام لفظ «الصحراء»، ثم يستعير الواحد هذه الكلمة ليستعرض علمه ومعرفته بالصحراء، فينقل الحديث إلى موضوع

«التصحر مثلا»، أو «تذمر أهل الصحراء من السياسات المحلية» مثلا، أو زيارته قبل أعوام لعين صالح في الصحراء... لا يهم، وإنما المهم أن ثمة هُزال وخيط من صوف يتعلق به صاحبنا ليقضي عليك مرة واحدة...

وفي اعتقادي أنَّ اليد إذا تحركت، وأن الساعد إذا نشط، فإن الكلام سيأتي على إثره موزونا مضبوطا حكيما؛ وسيكون له ألف معنى ومعنى؛ ولهذا أمر الله تعالى الصحابة الكرام أن يقدموا بين يدي حديثهم ونجواهم وكلامهم - في مجلس رسول الله ﷺ - صدقةً، أي قبل أن يعمدوا إلى تحريك الألسن لتقول، وجب عليهم تحريك الأيدي لتثمر...

اليوم، انتقلنا من حديث المغازل إلى حديث المهازل؛ إذ قل ما نوفق إلى جلسة محكمة، ذات موضوع دقيق، ننتهي فيها إلى فائدة حقيقة، ولا نندم بعدها أننا ضيعنا الكثير من جهدنا وطاقتنا فيما لا يعني؛ ونحن نسافر من القاع إلى الباع، ومن الغرب إلى الشرق، ومن العرض إلى المال... نسافر بألسنتنا أسفارا غير مأمونة العواقب، وننتهي صرعى وهلكى لا لنا بل علينا...

هلا صححنا مِن حالنا؟

وهلا امتنعنا عن الجلسات واللقاءات المارطونية المملة التي لا تثمر ولا تلد؟

وهلا طالبنا عند بداية كل حديث الالتزامَ بأخلاق الكلام، واللوذ بمنطق الكلام، واحترام قيمة الكلمة، واستحضار عين الله تعالى التي ترانا؟

وهلا أطلنا التفكر في يوم النشور «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا»، ويوم يقال: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد»؟

ليس الأمر بهين، وإنما هو أمر عظيم لو تعلمون...

فلا تحقروه يا رعاكم الله....

ماذا نستفيد من هستيريا «ترامب»؟

بين صامت وناطق، قابل ورافض، مصفق وباصق، حائر ومجترئ... يقف الإنسان المسلم أمام ظاهرة ليس أبلغ وصف لها أنها شكلٌ من أشكال «الهستيريا»، ولنسمِّها في مقالنا هذا: «هستيريا ترامب».

لعلَّ أخصر تعريف للهستيريا لدى علماء النفس، أنها: «اضطراب عقليٌّ، ناشئٌ عن القلق الشديد؛ ويتميَّز هذا الاضطراب بعدم وجود رقابةٍ على الأفعال والعواطف؛ ومن أعراضه الظاهرة حلول نوبات مفاجئة من فقدان الوعي مع الانفجارات العاطفية، وغالبا ما يكون نتيجة الصراعات المكبوتة داخل الشخص».

ولو تأمَّلنا بعقل علميٍّ تأمليٍّ الهالة التي تحوم حول الرئيس الأمريكي المنتخب هذه الأيام، لا لنقيِّمه هو، أو نصفه بأنه مثل «الحشرة» المسماة باسمه، للتشابه بين تسريحة شعره وحراشف هذه الحشرة، وليس الغرض كذلك أن ننحو منحى المهرج الألماني الشهير «فرانك كاستورف» فنحكم على الرجل أنه

«مهرج مخيف».

ولا ننوي التعليق على قراره العنصريِّ ضدَّ المسلمين، بمنعهم من دخول أراضي أمريكا، حتى ولو كانوا حاملي تأشيرة، معلَّقين في مطار الدوحة أو برلين؛ ولا نقصد في المقال أن ندين تواطؤه مع حكومة إسرائيل في بناء مستوطنات جديدة في أراضي فلسطين، مع الصمت الأخرق للعرب والمسلمين.

فما يعني «ترامب» يعنيه هو بخاصَّة، ويعني في الدرجة الثانية الذين انتخبوا عليه، أو لم ينتخبوا من الأمريكيين المحصوْن بـ325 مليون نسمة؛ فهو الآن رئيسهم شاؤوا أم أبوا، قبلوا أم رفضوا؛ وهذه هي الصفة الأكثر برودة وعفونة للديمقراطية في عصرنا العبثيِّ، الذي يحقُّ عليه وصف الكاتب «زيجمونت باومان»: «الزمن السائل، أو زمن اللايقين».

لكن الذي يعنيني من المقال هو «نحن» بكل ما تحمل الكلمة من دلالات وأبعاد: نحن البشر، نحن المحبون للخير، نحن المسلمون، نحن العالم الثالث، نحن الجزائريون، نحن المشتغلون بالفكر، نحن المرآة للإعلام، نحن المتلاعب بوعينا، على حدِّ تعبير الكاتب الروسي «سرجي قره»، في كتابه المثير «**التلاعب بالوعي**».

نحن، الذين ينطلقون في فكرهم وفعلهم من مسلَّمة «وجود خالقٍ، قادر مُريد»، ويؤمنون «بكرامة الإنسان» إيمانهم بالحقِّ المبين، ويحيلون كلَّ أمر يصدر منهم إلى «يوم سيحاسبون فيه»، يوم يُسألون «عمَّا عملوا فيما علموا».

لكن، ما بالي أختزل الجهة، وأزعم وجود هذا «النحن»، وأنه متجانس؟

أليست «هستيريا ترامب» كاشفا بما لا يدع مجالا للشكِّ عن غياب هذه «الذات الجمعية» التي خوطبت في أوائل سورة الأنفال، بقوله تعالى: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾[الأنفال: 1].

اليوم أسأل عن «فقيه»، عن «عالم»، عن «هيئة»، عن «سلطة»... لها إمكانية القول، وشرعية الحكم، في مثل هذه القضية، ولا أجد، بل أجد الجعجعة والبعبعة، لا ماء ولا طحين؛ وإنما مجرَّد آراء، بعضها يصطبغ بصبغة «دينية» للأسف منفصمة عن الزمن، والبعض الآخر متلوِّن بلون الخبرة، والتخصص، والعلم... لكنه علم كلاعلم، علم لا يُتقوى به، ولا يزيد للطين إلاَّ بلة.

المقال لا يشكُّ، ولا يشكك، ولا يستنقص، ولا

يهزأ من الدين، ولا من العلم؛ وإنما لو أتينا الإيمان من بابه، ولو مارسنا العلم من محرابه؛ إذن لوجدنا الجواب، ولما حام في ربوعنا الضباب؛ وإنما أنقُم على «المسؤول عن الدين»، وعن «المكلَّف بالعلم»؛ ممن هم رواد هذه «النحن» ورؤوسها؛ والمعروف في المثل العربي القديم قولهم: «الرائد لا يكذب أهله».

أسائل هؤلاء وأولئك: هل رفعوا الحيرة عن الناس؟ وهل عالجوا فيهم معاني «الهستيريا»، التي تملَّكت مواجدهم؟ وهل كشفوا عن الاضطراب العقليِّ الناشئ عن القلق، بسبب ما أحاط «ترامب» من هالة إعلامية، ومن ادعاء للقدرة المطلقة؟

ثم، هل بتنا نتحكم في أفعالنا وأقوالنا؟ أم أننا فقدنا السيطرة عليها كليَّة، حتى صار القول وضدُّه، والفعل ونقيضُه، ممكنان في منطقنا؟

وهل فقدنا الوعي، وتلبسنا بلبوس العاطفة الجياشة الجهاشة، التي لا تفرِّق بين خير وشر، ولا بين حق وباطل؟

لو أصغينا إلى عبد الحميد أبو سليمان لأكدنا أنَّ «الاستبداد» هو أصل الداء، وأنه السبب الأول فيما نأتي وما نذر، وأنه هو الذي أحالنا خِرقا بالية، لا

تنفع لشيء، ولا تضرُّ حين يلزم الإضرار بشيء.

ولو تقبلنا نظرية سيد حسين نصر، لوافقناه أنَّ غياب الوعي هو الحالقة، وهو أصل الداء، به هو مبلغ الأزمة، ونقطة الجمع لكلِّ خير إذا استيقظ، ولكل شر إذا نام.

ثم إننا لو عدنا إلى مالك بن نبي نسائله، لما كان عنده من جواب أبلغ من جدلية «القابلية للاستعمار» التي لا تزال تتحكم في إرادتنا، وتحيلنا إلى دمًى، بل إلى «عرائس القراقوز»، بيد المتحكم في خيوط المسرح؛ الذي كان أيامه متخفيا، وصار اليوم ظاهرا للعيان.

كثيرة هي المعالجات والقراءات في حقيقة الأزمة في وعائنا، ولكن لا تزال الأزمة هنا، والآن... لم تبرح الديار، ولم تغادر المزار؛ لا تزال بُعبعا مجلجلا، ومرضا مزمنا، لا نقوى على رده، ولا نملك الاستشفاء منه؛ فما العمل إذن؟

أعتقد أنَّ الباحث الجزائري جمال لكحل صادقٌ كلَّ الصدق (انظر الشريط في موقع فيكوس) حين أعاد المسألة إلى مصدرها، وردَّ القضية إلى مبدئها، ودعا إلى «معالجة المدرسة» من التحضيري والابتدائي

أولا؛ وهو ما قررناه مرارا، بقولنا: «للحضارة باب واحد، هو باب المدرسة»؛ فإن هي دخلت منه فنعمَّا هي، وإن هي لم تلج بلدنا من باب المدرسة، فلا ريب أنها لن تواتينا أبدا.

لكن، ليت شعري، هل نعي ذلك، أم هل نستوعبه؟ بخاصة نحن الذين نعمل في كنفها، معلمين، مديرين، مخططين، مبرمجين... ذلك أنك إذا لم تؤمن بما تفعل فلن يؤمن به أحد، وإذا لم تقتنع بما تعمل فلا تسأل الناس أن يرتضوه، وإن أنت شككت فيما أنت فيه فاعلم أن غيرك يكون حينها قد كفر به.

نعم، نقطة الانعطاف هي المدرسة، ونقطة الانعطاف داخل المدرسة تسكن قلوبنا وضمائرنا... هنالك فقط يركن الممكن، ومن هنالك نثور على المستحيل، ونحيل خريف بلداننا ربيعا، ولا يعنينا حينها هل أصاب «ترامب» أم أخطأ؟ وهل أحبنا أم أبغضنا؟

فلنراجع أنفسنا أولا...

ترامب «إمام عادل»، أو «شيطان رجيم» ماذا بعد؟

لنفترض جدلا أنَّ رئيس الولايات المتحدة الجديد «دونالد ترامب» كان «إماما عادلا»، محبًّا للخير وأهله، مبغضا للشر وأهله؛ ملتزما بالقيم الإنسانية، متلبسا بالأخلاق الحسنة، عطوفا بالضعفاء، شديدا على الظالمين... وأنَّ جميع الصفات التي يتصورها العقل، والتي يمكن أن يتحلَّى بها حاكم من الحكام عبر التاريخ كانت ماثلة فيه...

...لنفترض ذلك، ولنسلِّم به جدَلا؛ فماذا يمكن أن يتغير في واقعنا «نحن»؟

وفي عالمنا «نحن»؟

وفي بلادنا «نحن»؟

لا شيء على الإطلاق، ذلك أنَّ المؤثرات الخارجية، والأسباب غير الذاتية، وكل ما لا يأتي من «النفس»، ومن «ذات البين»، ومن «الضمير» مفرَدا وجمعًا... كلُّ ذلك ما هو إلاَّ مساعدٌ وكفى، وليس سببا مباشرا

في الظاهرة الإنسانية؛ فالحاكم الجائر «فينا ومنا» سيبقى على جوره، والمواطن الذليل سيبيت على ذله، والمفسد لن يترك فساده لمجرَّد أن علا «ترامب» عرش الرئاسة في أمريكا، ومحترف الرشوة لن يطلِّق عادته ولو كان على رأس كلِّ بلد غربي «ألف ترامب»...

فهل صعود «ترامب» يحوِّل شيئا «في وفيك، وفينا جميعا»؛ إلاَّ ما كان من «كلام فجٍّ» له أول ولا آخر له، ومن «تحليل بارد» لا يقدم ولا يؤخر، ومن «مسٍّ عقلي» (بارانويا) يصل إلى حدِّ الجنون؛ ثم لا شيء يتغير بعد ذلك فوق الأرض، ولا شيء يتحسن تحت السماء؛ ما دامت النفوس على حالها من «السفَه»، ومن «الصبيانية»، ومن «عقدة سردال» التي تحمل صاحبها على حبِّ جلاَّده، ومن عدم التفريق بين «ما هو كائن» و«ما ينبغي أن يكون»...

ثم لنفترض جدلا أنَّ «ترامب» هو أكبر وأخطر وأعظم «فرعونٍ» في التاريخ؛ جميعُ صفات الشرِّ لها في نفسه جذور، وكلُّ مواصفات الحقد والضغينة لها في قلبه بذور؛ وأنه عازم على اجتثاث المسلمين (والأقليات الأخرى بالتبع) من أصلهم، وأنه ناوٍ أن يلقي بهم عرض البحر، وأن يلحق الأذى بفلسطين كما لم يفعل من سبقه...

لنفترض كلَّ ذلك، وأكثر من ذلك؛ فهل يتغير شيء «فينا»، وهل يتحول أمر من أمورنا، وهل نكون أحسن أم أسوء؟ أقوى أم أضعف؟ أكثر حضورا أم أشد خفوتا؟

لا شيء من ذلك سيكون، نعَم ستشهد بلادنا بعض الحروب، وستشتد الوطأة على بعض البلاد في جغرافيتنا؛ ولكن ستكون اليد لذلك الظلم منا «نحن»، وسيكون المال للفتنة منا «نحن»، وسيصفق الجمهور للمسرحية من جهتنا «نحن»... وستزيد وطأةُ بعضنا على بعضنا، وسنزيد لِنار الفُرقة بيننا ضِراما، وسنحرق بأيدينا كلَّ عشٍّ في شجرنا، وكلَّ مهد في حينا، وكلَّ سبحة في مسجدنا...

لن يغير «ترامب» المعادلة، وقد يكون له أثر عليها؛ وإنما الحق «فينَا ومنَّا»، والصواب من «ذاتنا وفي ذاتنا»، والخير من «معدننا ومحتدنا»... فإن لم يكن فلا كان، وإن لم ينبت في سفوح قلوبنا فستغدو الغابة حطبا ورمادا، ولو بعد حين...

ليكن صعود «ترامب» أو «نزوله» مناسبة لمراجعة «ما بأنفسنا» حتى «نغير ما بها»؛ وليكن سببا للنظر في حقيقة أمرنا، وفي نوع معدننا، وفي جمال سلوكنا أو قبح حماقاتنا، وفي العلاقَات فيما بيننا: في البيت، والحي، والمدرسة، والسوق، والبرلمان... وكلِّ

المفاصل الحيوية للحياة...

ولنتعلم أن نقول للظالم إذا رشُدنا «نحن»: «اقض ما أنت قاض»...

وإنما الذي يقضي هو الواحد الأحد إذا أطعناه، وهو الفرد الصمد إذا استجبنا له، هو مالك الملك، ومالك كل شيء إذا كنا «نحن» عادلين في أقوالنا وأفعالنا، في عطائنا وحرماننا، في حكمنا وقضائنا...

لا يعنيني ما جاء به «ترامب»، ولا ما ذهب به؛ فإني والحمد لله على قدر من اليقين أن أعتقد أنَّ «الفعال لما يريد» هو الله وحده، وأنَّ «مالك الملك» هو الله وحده، وأنَّه هو وحده «يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء»، وهو وحده سبحانه «يعز من يشاء ويذل من يشاء»...

هي إذن نقطة انعطاف، من سراب «ترامب» ومن على شاكلته إلى حقيقة العزيز الجبار، تعالى علوا كبيرا؛

فهلا اهتبلناها فرصة قد لا تعود؟

الخيرية رهينة بصفاتها (من القواعد الكلية في فقه الحضارة)

كثيرا ما خلطت النظريات العرقية، والطرحات العنصرية، بين الذات والموضوع، وبين الصفة والموصوف؛ فادَّعت دوام الصفة لبعض الموصوفين أبدا؛ ومثل ذلك اعتقاد أنَّ الجنس الفلاني خلق للحضارة، وإنَّ العرق الآخر هو متخلف «جينيا»؛ بل وحتى أحيانا باسم الدين، يعتقد البعض أنَّ مجرَّد الانتماء ولو بلا اتصاف بمستلزمات ذلك الانتماء، كاف لبلوغ مرتبة الكرامة والتكريم.

فمثلا، يعتقد «غوبينو» أنَّ الأجناس تنقسم إلى ثلاثة: «الأصفر ويتسم بالمادية وافتقاد القدرات الإبداعية، والأسود الذي يفتقد الذكاء، والأبيض الذي يتَّسم بالنبل والشرف والروحانية وحبِّ الحرية؛ وأفضل أجناسه الجنس الآري». وفي كتاب من التراث الإسلامي نقرأ هذا العنوان: «باب تفضيل جنس العجم على العرب نفاق»، ويقرِّر فيه مؤلِّفه أنَّ المعتقد الصواب هو «أنَّ جنس العرب أفضل من جنس العجم: عبرانيهم،

وسريانيهم، رومهم و فرسهم وغيرهم...».

غير أنَّ القرآن الكريم، والسنة النبوية الطاهرة، والفكر المنبثق منهما بلا كدر؛ كلُّ أولئك ينبِّه إلى قاعدة «الخيرية مرهونة بصفاتها»، وأنَّ الأفضلية والأكرمية مقرونتان بالتقوى، لا غير. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: 110]. وقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ۙ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[النساء: 123]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**يا فاطمة بنت محمد، لا أغني لك من الله شيئا**...». الحديث.

ومدلول هذه القاعدة أنَّ خيرية أيِّ أمَّة ليست مرهونة بها، ولا هي مطلقة في حقِّها؛ وإنما هي مشروطة بشروطها، ورهينة بوجود صفاتها؛ والمؤكَّد أنَّ «هذه الأمَّة ليست خير أمَّة من الأزل، بل وُضعت فيها هذه الخيرية، وليست مما لا تفارقها ولا تنفكُّ عنها، فهناك حالات تحقَّقت من قبلها فأصبحت خير أمة، أي كونها خير أمَّة لا يعني أنها ستبقى أبدا هكذا، فإن لم تراع هذه الأمة تلك الصفات التي جعلتها خير أمَّة، ستضيع تلك الخيرية».

والقاعدة لها الكثير من التقاطعات، من مثل قاعدة «ذاتية الأسباب»؛ وقاعدة «العبودية التي تأبى الانعتاق»؛

وقاعدة «الأمور بمقاصدها».

عمليا؛ لا مجال لأن ينتظر المسلمون اليوم بلوغ مكانة مرموقة في سلَّم الحضارة؛ إذا لم يستعيدوا الصفات التي تبلِّغهم ذلك المقام؛ فمجرَّد انتمائنا للإسلام لا يغيِّر من الحقِّ شيئا؛ بله انتمائنا إلى عرق أو بلد أو حزب معين؛ وإنما تحقيق الخيرية مرهون بأن نأتي بالأوامر، وننتهي عن النواهي، ونأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر؛ مؤمنين موقنين، مخلصين عاملين؛ فإذا تحقق ذلك، كان الغد لنا، وشهدنا بزوغ شمس الفجر الجديد، بحول الله تعالى؛ وإلاَّ فلا.

وسام العالم الجزائري في عامه العاشر: قُبلةٌ على جبين الجزائر (الكلمة التي أعدت ولم تلق)

الحمد لله المنعم الستار، الحمد لله القائل: «لئن شكرتم لأزيدنكم»...

ربِّ أنعمت فزد... ربِّ أنعمت فزد... رب أنعمتَ فزد...

سادتي الأحبة، سيداتي الفضليات؛ سلام الله عليكم ورحمته تعالى وبركاته...

من وحي الذكريات، عن معلمي الأستاذ عبد الله كنطابلي رحمه الله، الفيلسوفِ المفكر؛ أخط هذه الكلمات، هدية للحضور الكريم، وللمحتفى بهم من علماء وعالمات، ومعلمين ومعلمات:

بصوته الأجش الرخيم، كان معلمي يتغنى؛ وعيناه الوضاءتان، من وراء نظارته الزجاجية الخشينة، تُطلان،

- رأسُه يرقُص لقصيده.... رقصةَ العابد العاشق الولهان،

- يُنشد، وهو ضاحك مبتسم، كمثل ابتسامة نبي الله سليمان،

- يُنشد، وهو يقول لنا، نحن التلاميذُ على قلة عددنا، وضعف مداركنا:

هذا أجمل شعر وأحلاه، وهو للقاضي الجرجاني الفحل، فاحفظوه يحفظكم، وتمثلوه يسمُ بكم؛

- يومها حفظتُ بعضًا من أبياته، ونسيت أغلبه، فهلا عذرتني معلمي؟

كان معملي الأديب يُنشد مترنما:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ
وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرتُه لي سُلَّمَا
وما زلتُ مُنحازاً بعرضيَ جانباً
من الذلِّ أعتدُّ الصيانةَ مَغنما

إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى
وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّمَا
أُنَزِّهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا لَا يَشِينُهَا
مَخَافَةَ أَقْوَالِ الْعِدَا فِيمَ أَوْ لِمَ
وَأُكْرِمُ نَفْسِي أَنْ أُضَاحِكَ عَابِسًا
وَأَنْ أَتَلَقَّى بِالْمَدِيحِ مُذَمَّمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي
لِأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ، لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً
إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ
وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا
مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

ولكن، ما لي وللشعر وما أنا بشاعر؛ ما لي وأمامي رجلٌ شهم، وعالم صان العلم عمرًا فصانه العلم دهرًا...

أمامي، وأمامكم - أعزتي - من يعدل ألفا من

الرجال؛ هو أمةٌ وحده، وهو نسيج وحدِه؛

حاز مقام الجمع فجمع، ونال قصب السبق فسبق؛

أمامكم سادتي، من أعاد مالك بن نبي إلى بلده بعد أن غادرها مُكرها، على مشارف الحرب العالمية الثانية...

استمعوا إلى مفكر الجزائر وهو يقول:

هكذا دخل العالم في الحرب العالمية الثانية، وشعَرتُ أنه لم يبق لي بتبسة ناقةٌ ولا جملٌ، فقررت العودة إلى فرنسا مع زوجي، وفي يوم 22 سبتمبر 1939، تسلقت سلَّم الباخرة بميناء عنابة مع زوجي، والهرة لويزة، وسلحفاةٍ أهدتها لنا أم أحمد عند الوداع...

وعندما بدأت الأرضُ الجزائرية تغيب في الأفق، وجدت نفسي أقول، وأنا متكئ على حافة الباخرة:

«يا أرضا عقوقا! .. تُطعمين الأجنبيَّ وتتركين أبناءك للجوع، إنني لن أعود إليك إن لم تصبحي حرّة!..».

* * *

نعم سادتي، تكتحل عيونكم اليوم، وفي هذا المحفل البهيج بجزائر حرَّة أبيةٍ، وتهفو قلوبكم لرؤية رجل، رافق مالك بن نبي في عودته الثانية إلى الجزائر؛ وهو

الذي قال يوما لزوجته وبناته قبيل وفاته عام 1973:

إني مغادر، سأعود بعد ثلاثين سنة...

مات الرجل، وجاء الأديب الأريب من أرض البركات دمشق الفيحاء، جاء من بلد الطيبات سورية العصماء... جاء الرجل على قدَر، حاملا معه بُشرى طباعةِ جميع ما ألَّف مالك بن نبي، وهو يدقُّ الأبواب بابًا بابًا... ويقول لا خفر الله له ذمة:

«إنَّ غربة مالك بن نبي قد آذنت بالأفول، فأفكاره التي استعصت على الفهم لدى أجيال النكبة والانتكاس الحضاريِّ قد أخذت طريقها الآن إلى جيل الشباب الذي استهدفه...

إلى هذا الجيل الذي بدأ يتشكل، تهدي دار الفكر الأعمال الكاملة لمالك بن نبي...»

ومن خلالها نهدي للعالمين فكرَ رجلٍ عرف الحق فلزمه، وعرف الباطل فهجره؛ ثم قال الحق وعزف مع القائل: «يا قوم، لا أسألكم عليه مالا، إن اجري إلا على الله».

أستاذي محمد عدنان سالم،

إن الجزائر قد أحبتك، وإنَّ ترابها قد حن إليك،

وإنَّ قلوب أهلها قد هبت للقياك...

وهي اليوم تخصك بالتكريم، وترسم قبلة حبٍّ لك على الجبين؛ والحال أنك أنت الذي كرمتها...

فهلا - أستاذي - تقبلت منا الهدية عربون وفاء، وعنوان احتفاء...؟

❊ ❊ ❊

إليك معلمي... إليكِ معلمتي...

إليك معلمي، إليكِ معلمتي أسوق الحديث... وكلي خجل وحياء أن أقف بين أيديكم، لأقول:

أنتم الذين صنعتم مجد هذا البلد، البارحة واليوم وغدًا...

فلا أحد منَّا عرف القاع والباع، ولا أحد هجر سقط المتاع؛ ولا هجَّى الحروف والكلمات، ولا سبك الجُمل والعبارات، ولا صنع المدارس والمؤسَّسات، ولا أقام صرح البلاد وأعلى الرايات...

إلاَّ على يديكَ سيدي، وبين يديكِ سيدتي،

أحبكَ معلمي، أحبكِ معلمتي...

أحبكم وقد خف وزن الحب في بورصة الناس، وصار الحب أبخس بضاعة، والدولار واليورو أغلى

من كل بضاعة؛ فانقلبت الموازين في منطقنا، وأدار الناس للحق ظهر المجن في حينا؛

وها اليوم بفضلكم أعيد للمبنى مبناه،

وللمعنى معناه...

وأعلنها صريحة: أحبكَ سيدي، أحبكِ سيدتي...

❊ ❊ ❊

هل تذكرين معلمتي يوم حزتُ أعلى المراتب، ثم بعدها أخفقتُ في الامتحان؛ فعلمتِني أنَّ الأيام دول، يوم لك ويوم عليك... ؟

وهل تذكر معلمي حين ضربتُ صديقًا، فعاقبتني برفقٍ، وعلمتني أن في الظلم خرابا للبلاد وهلاكا للعباد...؟

هلا ذكرتِ معلمتي تلك الزهرة التي رسمتُها يومًا، ثم أهديتك إياها، فترقرق الدمع من وجنتيك؛ وعلمتني أنَّ الحبَّ يقتحم أسوار القلوب بلا تأشيرة...؟

وهلا ذكرتَ معلمي يوم حملتَ إلي كتابَ «**عظة الناشئين**»، فقلتَ: طالعه تكن فحلا؛ وعلمتني يومها أنَّ الصبر على العلم شامة على الجبين....

على لسانك سيدي ومعلِّمي،

وبلسانك سيدتي ومعلمتي... أنشد - تماما مثل أستاذي قبل ثلاثين عامًا - جذلان نشوان:

وَلَـمْ أَبْـتَـذِلْ فِـي خِـدْمَـةِ الْـعِـلْـمِ مُـهْـجَـتِـي
لِأَخْـــــدُمَ مَـنْ لَاقَـيْـتُ، لَـكِـنْ لِأُخْـدَمَـا
أَأَشْـقَـى بِـهِ غَـرْسًـا وَأَجْـنِـيـهِ ذِلَّـــــةً
إِذَنْ فَـاتِّـبَـاعُ الْـجَـهْـلِ قَـدْ كَـانَ أَحْزَمَـــا
وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْـعِـلْـمِ صَـانُـوهُ صَانَهُـــمْ
وَلَـوْ عَـظَّـمُـوهُ فِـي الـنُّـفُـوسِ لَعُظِّمَـــا

في فن التربية

الفكر التربوي الصيني من منظور نموذج الرشد

التقاعد والعطل: أيهما يليق بالإطار التربوي؟:

أسالت مسألة التقاعد المسبق في عمر الخمسين الحبرَ الكثير في الجزائر؛ ولا يزال تقاعد العامل في حقل التربية والتعليم محلَّ جدل حادٍّ، في مستوى الحقوق بخاصَّة؛ لكن تبقى واجباتُ المتقاعد في منطقة الظلِّ؛ سواء أكان معلما، أم مديرا، أم إطارا تربويا، أم حتى مساعدا بيداغوجيا في مؤسسة من مؤسسات التربية والتعليم.

ولعلَّ المعاينة تظهر أنَّ الذي يتقاعد من مهنة التعليم، بلا مشروع معدٍّ مسبقا، وبلا رؤية واضحة لحقل النشاط اليومي، دوما يصاب بنوع من الانعزال، والانطواء؛ وأحيانا تتهدَّده الأمراض النفسية، ويحسُّ أنَّ من حوله قد غادره وأدار له الظهر؛ وأنَّ من تعلَّم على يده لم يكن وفيًّا له، ولم يبادله النفع بمثله.

وهذا لا ينفي وجود عدد من العاملين في التربية، ممن تقاعد وضاعف نشاطه، إما في مجال العلم

والتعليم، أو في مجالات الحياة الأخرى، من مثل الخدمة الاجتماعية، والنشاط الخيري، والنشاط السياسي الحزبي أحيانا؛ وإنَّ البعض ليختار تحويل القبلة وجهة أعمال تحرِّك العضلات، و«تذيب الشحم»، وتمنح الحيوية، وتمنع الأمراض المزمنة، من مثل الزراعة، والرعي، والتجارة، والصناعة... وغيرها.

لي لانكينغ، مارس الإشراف على حقل التعليم عقدا من الزمان، وزيرا للتعليم، ومهندسا لنهضة الصين في هذا المجال الحيوي؛ حين تقاعد عام 2003م، كتب في مقدمة كتابه:

«بعد تقاعدي... عقدتُ العزم على الابتعاد عن العمل الحكومي، مكتفيا بدعم وتأييد القيادة المركزية، والحكومة الجديدة، وهذا لا يعني أني اخترت البقاء عاطلا عن العمل، بل على العكس فقد استثمرت هذه الفرصة لأمارس هواياتي المفضلة التي حُرمتُ من ممارستها بحكم عملي في خدمة الدولة». (توفير التعليم: ص 7).

ويسجل في هذا الموقف إيجابية الرجل، فهو لم يمارس عمل «الهدام» لما بناه من سبقه، ولا لما يشيده من لحقه؛ وإنما كان «داعما ومؤيدا» لهم.

ثم إنه فرَّق بين «التقاعد» وهو مفهوم وظيفيٌّ قانوني، و«العطل» الذي هو مفهوم وجودي خلقي قيميٌّ؛ فهو قد تقاعد ولكنه لم يتعطَّل؛ أي أنه توقف عن الوظيف الرسمي، وتحوَّل إلى العمل المرغوب فيه، وإلى ممارسة الهوايات التي طالما حلم بها، من مثل التأليف، والنحت، والرياضة، والسفر.

والحقُّ أنَّ القناعات والمفاهيم والأفكار التي ترسم «النموذج المعرفي» للإطار التربوي، هي التي تحدِّد مسيره ومصيره، وترسم خطَّ الحركة لعمله وما بعد عمله الرسمي؛ فإذا ما اعتقد أحدٌ أنَّ عمله التربوي «ثقلٌ عليه، وعبءٌ مثقل لكاهله»، فإنه لا شكَّ سيعمد إلى التخليِّ عنه عند أقرب فرصة تتاح له؛ أما إذا آمن أنه «واجبٌ» عينيٌّ مقدَّس، و«متعة» لا تضاهيها متعة؛ فإنه حتى ولو تقاعد، سيواصل سكَّ الطريق، وتعليم الناس الخير، بلا تعب ولا إعياء.

يقول المؤلف منطلقا من قناعاته:

«لقد كنت على قناعة بأنَّ تعلُّم الأشياء الجديدة تفيد الصحَّة من الناحيتين النفسية والجسدية. وليس المهمُّ في نظري أن يعيش الفرد سنين طويلة، بل المهمُّ أن يبقى محافظا على نشاطه وحيويته الذهنية. لأنَّ في ذلك فائدة تطال المجتمع ابتداءً من الفرد والعائلة».

(توفير التعليم: ص 7).

ويمكن أن نضيف إلى الفائدة النفسية والجسدية والاجتماعية، في سياق المجتمع المتدين، والمسلم بالخصوص، أنَّ في التعلم والتعليم مرضاة لله تعالى، وليس أحبَّ إلى الله سبحانه من عباده الذين ينفعون الخلق، وفي حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أنَّ رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيُّ الناس أحب إلى الله؟ وأيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله عز وجل؟».

فقال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تطرد عنه جوعا، أو تقضي عنه دَيْنًا؛ ولأن أمشي مع أخٍ لي في حاجة، أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجدِ يعني مسجد المدينة شهرا». (المعجم الأوسط للطبراني).

التأليف وتدوين الخبرة:

الغالب فيمن يتقاعد من سلك التعليم أنه يتميز بثقافة تسمح له بأن يكتب ويؤلف، سواء باللغة العربية الأمِّ، أم بأي لغة أخرى درَّسها أو درَّس بها؛ ولا يشترط في الكتابة أن تكون «احترافية»، ولكن يشترط فيها «الصدق» منهجا، و«العفوية» أسلوبا، و«السهل الممتنع» بلاغة؛ وذلك حتى يستفيد القارئ المتخصص وغير المتخصص.

فيمكن أن تأتي كتابة المشتغل بالتعليم أوان اشتغاله، أو عند تقاعده، على شكل مذكرات، أو خواطر، أو مقالات، أو مؤلف تحليليٍّ، أو مسرد للمفاهيم والمصطلحات، أو حوارات إعلامية، أو مواضيع تربوية متخصصة، أو حتى ترجمة ذاتية وخبرة تنقل بأسلوب مباشر للقارئ.

ولقد انصرف لي لانكينغ إلى كتابة خبرته، وقال:

«اقترح بعض الأشخاص أن أنصرف إلى الكتابة، كما طلب مني بعض الصحفيين إجراء مقابلات معهم، حول قضايا تتعلق بالتربية والتعليم». (**توفير التعليم**: ص 7).

ولقد استفاد من التقارير، ومن المقالات، والخطابات،

والمذكرات... التي كتبها حين كان على رأس وزارة التعليم، فحيَّنها حتى تبدو مفهومة للقارئ؛ ذلك أنَّ السياق التاريخي كثيرا ما يغيب عن الجيل اللاحق لمرحلة ما.

وحين زاول التأليف فضَّل التبسيط على التعقيد، وكان هدفه ومنهجه، كما قال:

«لكي يستطيع عامة الشعب الانتفاع من قراءة الكتاب وجدتُ من المناسب أن تكون صياغته على شكل أسئلة وأجوبة، يستطيع القارئ عبرها أن يتطلع على كيفية صناعة القرار، وتوجهاتنا في تلك الحقبة، ولماذا فعلنا ما فعلنا». (**توفير التعليم**: ص 7).

وهذا الموقف من تأليف المذكرات بعد التقاعد يعيدنا إلى مذكرات «محمد مهاتير» التي عنونها بـ«**طبيب في رئاسة الوزراء**» ومما ورد فيها في فصل «التعليم» نقرأ: «أدركتُ منذ زمن بعيد أنَّ ماليزيا في حاجة إلى أن تطور نظامها التعليمي، ليتسنَّى لشعبنا التسلح بالأدوات اللازمة للبقاء في هذه الألفية الثالثة». (**ص** 872).

ثم إنَّ لانكينغ لم يفرح بما أنجز حين أتمَّ مسودة الكتاب؛ ولكنه عرضها على «**عدد من قدامى العاملين في**

سلك التعليم، وبعض الصحفيين، وقد ضمَّت المسودة النهائية عدة مقترحات، تقدم بها كبار المسؤولين في وزارة التعليم، ووزارة العلوم والتكنولوجيا، ودوائر أخرى». (توفير التعليم: ص 7).

خطورة التعليم في سلم الحضارة:

حين تولي الأمم أولوياتها ما تستحقُّ من عناية، وحين لا تسير مقلوبة كمن يمشي مكبًّا على وجهه؛ فإنها تضع ملف التعليم على رأس الاهتمامات، وتفرد له الجهد الأكبر، وتوجه إليه أكبر العقول، وأصدق القلوب، وأصدق السواعد.

لي لانكينغ تولى عدة مناصب سياسية ووزارية، مثل ملفات الخارجية، والتجارة، والتكنولوجيا، والصحة، والإعلام... وغيرها؛ إلا أنه يقرُّ أنَّ:

«قطاع التعليم من أشدِّ القطاعات خطورة، لأنه يطال المجتمع كلَّه». (**توفير التعليم**: ص 8).

وما دام الملف بهذه الخطورة، بخاصة في بلد يفوق عدد سكانه المليار وثلث المليار من البشر؛ فإنَّ بذل قصارى الجهد هو المنفذ لتحقيق المطلوب، وبلوغ المرغوب:

«في بداية الأمر كنت حديث العهد بموضوع التعليم ومستلزماته؛ ولذلك بذلت قصارى جهدي لدراسة هذا القطاع عبر التجربة والممارسة، فكنت أحيانا أخطئ وأحيانا أصيب. استطاعت الصين بعد عشر سنوات من الجهود المضنية على مختلف المستويات أن تحرز

تقدما هائلا في مضمار التعليم».(توفير التعليم: ص 8).

لا بدَّ من التنبه إلى نقاط ثلاث، باتت غائبة عن الدول المتخلفة بنسبة كبيرة، إلاَّ ما شذَّ، وهي:

- الاعتراف بالعجز، وسد الخلل بالعمل والاجتهاد.
- عدم توقع الصواب المطلق، وتقبل الخطإ، مع التصريح به، بنية تصويبه.
- النجاح ليس ثمرة فرد، وزيرا كان أو رئيسا، وإنما هو جهد مضنٍ على مختلف المستويات، بلا استثناء.
- الإشادة بالتقدم حين يتحقق، وعدم بخس الناس أشياءهم.

ومن الضروري أن ينفصل ملف التعليم عن تقلب السياسات، وأن لا يكون تابعا للخيارات الحزبية؛ حتى لا يكون عرضة للبناء والنقض، كلما حدث تغير في سلم الحكم ببلد معين. وحتى لا يساوم اللاحق السابق في مجال حساس مثل التعليم.

«كانت وظيفتي بمنزلة قائد وموجه لمسيرة التعليم في البلاد، وقد استثمرت فرصة موقعي في العمل في سبيل إصلاح قطاع التعليم، وتنميته بالبناء على منجزات أسلافي، متجنبا الإفراط في التفاؤل».(توفير

التعليم: ص 8).

ولقد كتبت مقالا ونشرته تعليقا على وزير للتعليم سابق، في محاضرة له، كان حريصا على أن يبين عور سياسة من سبقه ومن لحقه على رأس وزارة التعليم؛ وكان يدافع بشراسة عن المرحلة التي تولى فيها المسؤولية، ويبرر للخيارات، وحتى للأخطاء؛ مع بذل الجهد على أن يلقيها على كاهل الآخرين؛ ولم أسمع منه طوال المحاضرة نسبة خطإ إلى نفسه، أو اعتذارا عن موقف لم يكن موفقا فيه؛ وهذه هي خطوط الفرق والحد الفاصل بين لي لانكينغ وبلد كالصين، ووزير في بلد لا يزال يعاني تبعات «القابلية للاستعمار».

يقول لي لانكينغ:

«وأستطيع القول بأنني أنجزت بعض المهام بنجاح، وأخفقتُ في بعضها، وهنالك مهام لم تنجز بالكامل، أو على النحو الذي كنت أشتهيه، ولكني على ثقة بأنَّ من سيخلفني في منصبي سيؤدي المهمَّة على نحو أفضل». (توفير التعليم: ص 9).

لكل بلد خصوصيته وتعليمه:

الاستهلاك ليس ظاهرة مقتصرة على المقتنيات اليومية فقط، ولكنها ظاهرة قد تتعدَّى إلى مجال الأفكار، والقناعات، والأذواق، بل والبرامج الثقافية، والمناهج التربوية؛ والخلل عند العديد من البلدان المتخلفة يكمن في أنها تقوم بعملية «نسخ/لصق» لما قد لا يتلاءم مع خصوصيتها الحضارية والثقافية؛ وقد نبه مالك بن نبي إلى هذا الزلل في تجربة أندونيسيا، التي استوردت أفكار خبير كان له الأثر البالغ على ألمانيا بين الحربين؛ إلاَّ أنَّه لم يحقِّق أيَّ نتيجة في نهضة أندونيسيا، والمشكلة تكمن في الخصوصية، لا غير.

فالجزائر مثلا، تراوحت بين مقترحات يلغي بعضها بعضا، فمن التعليم الأساسي، إلى المنهج القشتالتي، إلى المقاربة بالكفاءات... وما قبل ذلك وما بعده؛ نقرأ التأثر المباشر بفرنسا، وألمانيا، وكندا... إلاَّ أنَّ تعليما جزائريا ذاتيا خالصا، يبذل فيه مجهود علمي منهجي بحثي معتبر، لم يتحقَّق إلى اليوم للأسف.

يشير لي لانكينغ إلى أنَّ «**التعليم مسألة بالغة الأهمية للعالم كله، والأنظمة التعليمية تختلف من بلد إلى بلد، بما يتناسب مع خصوصية هذا البلد أو ذاك. إلاَّ**

أنه توجد قواعد عامَّة ينبغي مراعاتها من قبل الجميع». (توفير التعليم: ص 11).

ثم ينبه إلى ضرورة الاستفادة من التجارب والخبرات، دون أن يكون ذلك على أساس الانبهار والولع، أو من منطلق عقدة الدونية والتبعية:

«ومن المفيد أن تسعى مختلف الدول لتبادل نتائج أبحاثها وخبراتها في ميدان التعليم». (توفير التعليم: ص 12). "ومن ناحية أخرى أدى التبادل الثقافي العلمي مع بلدان أخرى إلى تحسين وضعنا التنافسي». (توفير التعليم: ص 21).

كل الناس يدّعي المعرفة بالتعليم، فكيف نتلقى النقد؟:

يعبر لي لانكينغ عن صعوبة ملف التعليم، حين حمِّل مهمَّة نيابة رئيس مجلس الدولة، المكلف بالتعليم والاقتصاد، عام 1993م؛ ويعدِّد ضمن أسباب تلك الصعوبة أنَّ

«كلَّ فرد في الشارع يعدُّ نفسه خبيرا في شؤون التعليم، وكثيرا ما ينتقد بشدَّة كلَّ ما نقوم به».(توفير التعليم: ص 27).

وليست الصين بدعا في هذا الأمر، فتجربة منظومة الرشد، من خلال المدارس العلمية، أثبتت لنا بما لا يدع مجالا للشك، أنَّ من يكن حسَّاسا تجاه انتقادات الناس، لا يستطيع تحمُّل مهمَّة التعليم؛ وهذا لا يعني بالطبع عدم الاهتمام بآراء الناس، ولا إلقاء ملاحظاتهم في المزبلة؛ ولكنه يعني أن تؤخذ الملاحظات في مستواها وفي حيزها، وضمن معطيات «الوعاء الحضاري» وجدا وفقدا؛ إذ من السهل أن يدعوك إنسان إلى أن تكون المدرسة مجهزة بأحدث تقنيات العصر، ولكنه من جهة أخرى لا يحرص حتى على تسديد نفقات التمدرس لابنه.

فبين قبول النقد، الذي هو وقود المدرسة؛ والاستجابة

لكل «صيحة ونعق» مما هو «مكبح التعليم»؛ ثمة طريق وسط، يدعو إلى التشارك في الصواب والخطأ، وإلى تحمل المسؤولية «سويًّا، معًا، يدا بيد»؛ تماما مثلما دعا سيدنا محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ القبائل، قبيل بعثته، لرفع الحجر الأسود بالتعاون والتشارك، وتحمل المسؤولية من جميع الجهات.

المدرسة والمستعمر

التعليم لأجل زعزعة الإيمان:

ينسب صاحب كتاب «المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة» مقولة للجنرال يوزيف، من خلال وثيقة تعود إلى أواسط القرن التاسع عشر، ومما ورد فيها:

«نحن في البليدة في العام 1859: إننا بصدد الحصول على نموذج "الكرة الأرضية" لصالح مدرسةٍ؛ حيث كلُّ التصوُّرات قلقة: ما الذي ستكون عليه كل النظريات الدينية حول شكل الأرض؟ إنَّ مدير المدرسة يبحث عن الحجج المناسبة التي يمكن أن يعطيها لتلاميذه. إنه يجمع كلَّ ما تيسَّر له من الأدلَّة ليبرهن لهم بأنَّ الأرض بهذا الشكل. إنما يتمنى إقناعهم والنجاح في زعزعة الاعتقاد بعصمة المؤلفات الدينية من الخطأ من وجهة النظر العلمية. إنها بمثابة البذرة التي تزرع في مناقشات الشباب، وستؤتي ثمارا أفضل من دراسة "سيدي خليل"، و"واحدية الله"». (المواجهات الثقافية: ص 21).

يبين هذا النصُّ المعبِّر مدى جهل المستعمِر بالبلاد التي استعمرها، حيث يعتقد أنَّ الناس «جهلة»، وكذا جهله بدينهم الإسلامي أقنعه أنَّ القرآن الكريم مثل الإنجيل، وأنَّ الإسلام في علاقته بالعلم مثل المسيحية، وأنَّ التاريخ يعيد نفسه.

ثم إنَّه يضع العلم والدين وجها لوجه، وكأنَّ الإنسان إمَّا أن يكون عالما ملحدا، أو جاهلا مؤمنا؛ وبالتالي فإنَّ الصورة المختزلة للصراع بين المقدَّس والمدنَّس تنخر في فكر الحملة الاستعمارية، ولا تزال؛ وللأسف انتقلت مثل هذه القناعات المحرَّفة إلى ثلة من تلاميذ الغرب المرتَّبين الأغبياء؛ ممن لم يكلِّف نفسه عناء تصفية ما تعلَّم؛ غير أنَّ من الدارسين في الغرب، أو على يد الغرب مَن استطاع أن يستفيد مما يحتاج إليه، ويترك ما لا يحتاج إليه: استفاد من التكنولوجيا ورفض الأيديولوجيا، استفاد من العلوم الوضعية ورفض الرؤية الكونية التي تؤسس لها».

القراءة الصاخبة، وتغييب الفهم:

سجَّل مراد هوفمان في مذكرات ملاحظة مفادها أنَّ الأطفال يقرؤون القرآن بصوت مرتفع، ويغيب الفهم من أولويات التعليم الذي يتلقونه؛ وذلك في ثمانينيات القرن العشرين؛ ونفس الملاحظة مع فرق طفيف في العبارة، سجلها النقيب الفرنسي «إدوارد دو نوفو/ **Edward de neveu**» الذي كان ملحقا بالجزائر المستعمَرة، وذلك عام 1845م، ومما ورد في كتاب «**المواجهات الثقافية**» نقرأ:

«أمَّا بالنسبة إلى المدارس الأساسية، التي كانت موجودة في الجزائر العاصمة نفسها، فقد كانت غير ذات فائدة بالنسبة للنقيب، الذي يكتب: "إنَّ الأطفال لا يقرأون ولا يكتبون سوى الآيات القرآنية (...) لقد كانت طريقته في الدراسة صاخبة جدا، إذ كان الجميع يرددون بصوت عالٍ كلماتِ النصِّ العربي، ليتمَّ ترسيخه في الذاكرة (...) لقد ظنَّ بعضهم هذا الصوت العالي المتزامن للتلاميذ نوعا من التعليم التعاضدي، لكنهم كانوا مخطئين سواء في المعاينة أم في الوقائع. إذ لم يكن ذلك سوى حالة من الذهول التعاضدي. فلا مجال هناك لا للتعليق ولا للشرح. إنَّ جهل المعلِّم يجعلهم عاجزين، وليس هناك من ملكة

ممارسة سوى الذاكرة».

يضيف المؤلف معلقا:

«ثم إنَّ هذه اللائحة من النقائص، التي تصف بطريقة جيدة إيمان هذا الرجل، المؤمن بروح الأنوار في الحياة الفكرية: "ليس هناك لا تأليف، ولا إنتاج فكري، ولا بحث، ولا اكتشاف، ولا شغف بالمعرفة، ولا حتى إعمال للعقل" وهكذا بقيت أجمل الملكات وألمعها مقيدة». (المواجهات الثقافية: ص 52).

تعليم المرأة لتكون رهينة بيد المستعمِر:

دخلت فرنسا الجزائرَ مستعمرة في عام 1830م، وكانت المرأة الجزائرية هدفا مصرحا به، بقصد أن تكون رهينة بيد المستعمر، فتفتح له البلاد، وتهين لأجله العباد؛ إلاَّ أنَّ المرأة الجزائرية استعصت على محاولاته؛ وتذكر الوثائق أنَّ المدعوة «أليكس» في حوالي عام 1942م، سعت لفتح مدرسة للبنات في الجزائر، وفي ذلك نقرأ:

كانت السيدة أليكس ترمي إلى جمع 200 إلى 300 فتاة صغيرة كان ينبغي ضمان إطعامهنَّ، بفضل الدعم الذي - من البداهة القول بأنه - كلما ازداد عدد التلميذات تضاعفت قيمته. إلاَّ أنه سيكون لهذه المصاريف ما يقابلها، حيث ستسمح بتوفير موارد أخرى؛ لأنه وحسب تكهن السيدة أليكس، وفي ظرف 10 سنوات، سيصبح من 10 إلى 20 % من تعداد الجيش الفرنسي عديم النفع. كيف ذلك؟

تقول أليكس:

«كما تعلمون السيد الوزير، إنَّ أقوى عنصر من حيث التأثير في إفريقيا، وكما عليه الحال في أوروبا، هو المرأة. فإذا تمكنتم من استقطاب 100 ألف من

بنات الأهالي، وأشبعناهنَّ بمبادئ حضارتنا، بحيث يؤخذن من مختلف فئات المجتمع، وأعراق الإيالة. ستصبح هذه الفتيات - بحكم الظروف - الزوجات المفضلات للرجال ذوي المكانة المرموقة، ضمن الفئة التي ينتمين إليها في المجتمع، ومن ثم يضمن إلى الأبد خضوع البلد، ويكُنّ، بالتالي، الرهينة المتعذر استردادها لاستيعابه مستقبلا. ويتطلب الأمر لتحقيق هذه الغاية الباهرة 200 ألف فرنك، وليس أكثر».

يا له من استنتاج رصين. (المواجهات الثقافية: ص 60).

مقاومة الغزو الاستعماري التربوي:

إنَّ المجتمع الجزائري قاوم فكرة التحكم في المرأة من خلال التعليم؛ ومن ذلك أنه

«كان الآباء يبقون على أبنائهم في القبائل مع وضع حراس متقدمين للإبلاغ في حالة وجود أية محاولة للاختطاف. والأمهات كنَّ يتوارين عن أنظار الصبايحي، لقد كان بعضهنَّ يخلعن على أبنائهنَّ ملابس الفتيات، رغم العار الذي يمكن أن يجلبه لهم ذلك السلوك».

«وقد نقل أعيان رأس بسكاد (Pointe Pescade) وبئر خادم خبرا يفيد بخوف النساء وتصميمهنَّ على الوقوف في وجه محاولة خطف أبنائهنَّ». (المواجهات الثقافية: ص 71).

وفي تلمسان كادت تقوم انتفاضة للسبب ذاته، مما استدعى الجنرال غشنور (Gusheneur) قائد المجموعة الفرعية لوهران لطمأنة السكان على الفور لئلا تنظمَّ القبائل إلى صفِّ الأمير عبد القادر». (المواجهات الثقافية: ص 74).

ولقد سجل فيلمان، وهو مدير ثانوية فرنسي، مهتمٌّ بشؤون التربية في الجزائر:

«إنَّ العائلة والمواطنين والدين كلها تناصب العداء

للتعليم الذي ينبغي أن يتلقاه الشباب. وبمجرد خروجهم من المدرسة تشرع هذه المؤثرات القوية في المقاومة، من أجل تدمير الثمار الطيبة للتربية (...) ينبغي أن تنصبَّ الجهود في اتجاه جعل هؤلاء الشباب الجزائريين أشخاصا متعلمين ومخلصين لحضارتنا، إن لم نقل رجالا يشبهوننا، أو على الأقل، جعلهم يرغبون في الاقتراب منا أكثر فأكثر من خلال المشاعر والأفكار». (المواجهات الثقافية: ص 78).

ولقد تنبه فيلمان إلى دور الدين في مقاومة الغزو التربوي، وهو يقول:

«إنه علاوة على تدهور الدراسات الدينية، فسح الدين المجال أمام تعصب أعمى وعنيف، مسكون بالريبة، إنه لمن قبيل الإلقاء بالنفس في طريق خطر داهم بالنسبة إلى من يواجه هذا الخصم القوي». (المواجهات الثقافية: ص 78).

ثم يضيف:

«هناك حجاب ينبغي هتكه، حجاب يغطي بالنسبة لكثيرين أعز الأوهام: تقاليد العائلات، احترام الأسلاف، إكبار الإيمان. ينبغي دفع المسلمين أنفسهم لهتكه». (المواجهات الثقافية: ص 79).

بنيَّ، سمعتُك...
فهلاَّ سمعتني؟!

من النافذة المشرفة على ساحة المدرسة أتملَّى الهدوء في ضوضاء التلاميذ الملائكة، وأتحسَّس الراحة في تعب المشرفين المرابطين؛ ثم أخبز العالم الجواني عندي بعجينة من فكر وتربية، وماء من مثال وواقع، ودهن من أمل وألم...

أحاور نفسي بصوت صامت أحيانا، وبآخر صاخب أحايين أخرى...

وسؤالي الذي لا ينفك:

«ترى، ماذا يقوله هؤلاء الفتية الزغب؟ فيما يفكرون؟ ماذا لا نعرف عنهم، وماذا نعرف؟ ما حدُّ حيرتهم؟ وما مبلغ أفكارهم ومشاعرهم؟. ما مصيرهم وما مآلهم؟ أإلى هلاك أم إلى نجاة؟ وكيف السبيل إلى وزعهم مع الفتية الذين آمنوا، وقاموا وقالوا؟».

هي أسئلة، لها أول ولا آخر لها، أكاد أسمع الجواب عنها في «صرخات الأطفال» بكلِّ لغة، وبكل لسان؛

قد لا يكون لما يقولون علاقةٌ بما أفكر فيه بالضرورة، ولكن يقينًا مَا يمرُّ عبر حناجرهم «رسائل مشفَّرة لنا»، وما تنطق به حركات أيديهم وأرجلهم «معانٍ عميقة موجَّهة إلينا»، وما يسِمُهم من هدوء ووقار، أو ما يجمِّلهم من فوضى وكلامٍ ثرثار، جميع ذلك يبحث عمَّن يسمع، عمَّن يلقي بأذنيه، عمَّن يفتح عينيه، عمَّن يوسع قلبه، عمَّن يذكي عقله...

فلا مكان للصم البكم العمي الشرود، في عالم الأطفال...

بنيَّ، سمعتُك... فهلا سمعتني؟

بنيَّ، أعرف أنك تعيش على فوهة بركان، وأنَّ واقعك أعقدُ من واقعي، وأنَّك أدرى بعصرك مني؛ ولكن مع ذلك، ولأجل ذلك، أعتقد أنَّ الله حباك بملكات تفوق مَلكاتي، بقلب أوسع من قلبي، بعقل أذكى من عقلي... فربِّي رحيم بك وبي، يهَب الناس أسبابا تلائم نوع الاختبار، وليس يملك الإنسان أن يشكَّ أو يحتار...

بنيَّ، هل تُحاوِر والدك في شؤون الحياة، في غامضات الأفكار، في الوارد من الفلسفات، وفي فسيفساء الإعلام الهدار؟ هل تسمعه ويسمعك، هل تجلس إليه ويجلس إليك؟ هل لا يزال يحضنك وقد بلغتَ عمر

المراهقة، وبدت عليك بعض أمارات الفوران؟ هل باتت أمُّك أقرب إليك من ذي قبل؟ أم أنها ابتعدت عنك، واشتغلت بكلِّ شيء إلا بك؟

بنيَّ، هل كشفتَ أسرارك لأحد؟ من يكون، كيف، ومتى؟

لا تَخَفْ بنيَّ، فكلُّ من في عمرك يجرِّب، ويخطئ، ثم يصوَّب فيصوِّب؛ لكن لا تُبقي صدرك علبة سوداء مغلقة، ولا تترك قلبك بين يدي اللئام من بني البشر، ولا تفتح عقلك للمضللين من كلِّ مشرب ومذهب... ولا تستسلم لداعي شياطين الكلمة والصورة والإيحاء العاهر.

ثق في والديك، وليثقا فيك؛ اقترب منهما أكثر؛ أحبَّهما أكثر؛ صاحبهما أكثر...

فمن بابهما مَخرجك ونجاتك، ومن قلبهما المحبِّ برُّ الأمان في بحرك ومحيطك...

ثق في معلميك، ومعلماتك...

صارحهم، صارحهنَّ... ... بكلِّ ما تخجل منه، وبجميع ما تخشى أن يُفضح لأحد؛ فهُم، وهنَّ... مغمورون بحبك، لا يعنيهم شيء من الحياة إلاَّ أن تكون صالحا، وأن تنال الحسنيين؛

هم قد ضحوا بالغالي والنفيس، بالمال والمنصب، بالشهرة والشهوة، بما تكالب الناس عليه، وبما صار العالَمون يقومون ويرقدون على معبَده... هم ضحوا بجميع ذلك، فلا تردَّهم خائبين، ولا تخن أمانتك يا رعاك الله...

بني، سمعتُك، فاسمع نفسَك، وأسمِع مَن حولك مكنون فؤادك، ومخزون فكرك... لا تخجل في ذلك، ولا تتردد...

سمعتك بنيَّ، فهلَّا سمعتني؟

محاورة فلسفية، حول القراءة والتأمل... عن ميشال أونفراي

أخي العزيز مبارك بوبلال، سلام وتحية طيبة،

سؤالك عن ميشال أنفراي (Michel Onfray)، بخاصَّة حول القراءة، وعن رأيه في أنَّ الفيلسوف الحقيق هو الذي يُغرق في التأمل، وليس الذي يكثر من الْتِهام الكتب التي تحجب عنه الحقيقة؛ يذكِّرني بالفيلسوف باروخ سبينوزا، الذي أتذكر أني قرأت عنه في السنة الرابعة جامعي عام 1992، وكان موضوعَ اختبار دخولي في مرحلة الماجستير يومَها؛ وقد استفدت منه بخاصة من خلال «قصة الفلسفة» لويل ديورانت، وقد أدركت عمق فلسفة سبينوزا يومها؛ وهو الذي يفتخر أنه ليس قارئا نهما، وإنما هو متأمل برع، حتى عُرف بالمتصوف، رغم أنه ليس مؤمنا بالمعنى الديني للإيمان.

أخي، رأي أنفراي في التربية، وأنَّ الطفل يولد فيلسوفا، ثم تحجِبه المدرسة عن التفكير في الأسئلة الجوهرية للحياة، هو رأي صادق ودقيق، ولقد كتبتُ

قبل أكثر من عقدين من الزمان عن العقيدة التي تدرَس وتدرَّس، والنظر متوجه إلى الورقة لا إلى السماء، إلى الحرف لا إلى الكوكب، إلى الحبر لا إلى البحر... ولعل هذه الفكرة كانت من بواكير سؤال الأزمة عندي، حول حركية الفكر والفعل؛ ولذا فإن تعريف أنفراي للفيلسوف، أنه «أن يكون فيلسوفا» لا «أن يقول عن الفلسفة»، والفرق شاسع بين الحالين؛ هو كذلك رأي وتعريف متميز.

لكن، لو قال نفسَ الكلام رجلٌ لم يقرأ كثيرا، ولم يكتب كثيرا، هل يكتسب قوله معنى ودلالة كونية معرفية عميقة؟

أحسب أن التجاوز، ومنه تجاوز القراءة، يمر بثلاث مراحل:

- تجاوز أولي، ممن لم يقرأ البتة؛ ثم ارتبط بالقراءة إلى حد القداسة، وهو شأن الطلبة مثلا
- ثم تجاوز ثان للقراءة، من قِبل من قرر أن يطلِّق التفكير، وفضل أن يمارس الحياة رتيبة.
- ثم يأتي التجاوز الثالث، وهو للذي مرَّ بالمرحلتين السابقتين، ثم واصل المسيرة وحده: مفكرا، متأملا، قارئا، كاتبا، ممارسا للفلسفة، عاملا... وهو التجاوز

الذي يولد الحكمة.

وأنفراي، في تقديري، بعد كل هذا الزخم الهائل من المؤلفات، وإنشاء جامعة، وممارسة للفلسفة بعمق... يحق له أن يقول ما قال، ولكن الذي ذهبَ إليه لا يخصُّ المستويات الأولى، والخوفُ أن يفسِدها، لا أن يمارس عليها تشذيب الذات وتهذيبها، كما قال هو نفسه في الشريط الذي شاهدته.

أخي، أنا حاليا أفكر مليا، وقد استغرقت منذ أيام، بمناسبة ولوجي عتبة الخمسين، في تفكير عميق، إلى حد العذاب أحيانا؛ وأنا أراجع ذاتي، وقراراتي، وخياراتي، وعلاقاتي الكونية، وصوابي، وخطئي، وكل ما يندرج ضمن «إرادتي ومشيئتي»؛ لكن هل أراجع ما كان قدرا محتوما لي، وما كان قضاء من الله يشكل ما حولي ومن حولي، وكليات ذاتي ونفسي، وعصري ومصري...؟

لا طبعا، وهذا هو الفرق بيني وبين أونفراي، وغيره من الملحدين، وهو فرق كذلك مع أمثال «إدغار موران» من اللاأدريين... هذا هو الفرق الواضح الجلي؛ فكل ما أُسْأَل عنه أراجعه وأمرره باختبار عسير، وكل ما يخرج عن دائرة إرادتي أتقبله وأحاول التأقلم معه، وأرضى به، ثم أرفض أن يعتبر أي مفكر أو فيلسوف

موقفي موقفا دينيا لا عقل فيه؛ أقول: لا، هو موقف إيماني يشغل العقل والقلب والضمير معا... وهو في عمق الفكر والفلسفة بامتياز.

وإذا سمحت لي أخي مبارك، أن أذكِّرك بالأخ مرسوط ابن موسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأسألك عنه:

هل تجده صاحب فكر وعقل ناضج؟ أم أنه مثل الكثيرين، مجرد ناقل قائل؟

طبعا، هو صاحب رأي ونظر، لا لأنه يقرأ كثيرا، في حد علمي؛ ولكن لأنه تميز بخاصيتين، هما أعظم ما في المفكر والفيلسوف من خصائص:

أولاهـا- أنه كثير السؤال، لا يتوقف عن طرح الإشكالات والأسئلة، مهما كان طابعها، ومهما كان مستوى المسؤول والمحاور، ومهما كانت قناعاته وانتماؤه؛ وهذه خاصية نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ثانيهما- أنه لا يتقبل شيئا إلا بعد أن يفحصه بعقله، وهو شكاك ابتداءً؛ وهي خاصية نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ هذا الشك إذا تحقق الجواب عنه يمنح صاحبه اليقين العميق، أما من ألِف القبول دون شك، فإنَّ إيمانه يكون هشا ورخوا، تقليدا لا تحقيقا.

أخي مبارك؛ ألا ترى أن أونفراي لم يقرأ القرآن

الكريم، ومع ذلك تجرأ أن يحشره مع الكتب المنزلة السابقة (التوراة، والإنجيل)؟ ثم نسب إليه حكما خاطئا، وهو: أنَّ الكتب الثلاثة تقنعك أن الحقيقة رهن ما جاء فيها، ثم تسلب عنك البحث عن الحقيقة في الكون.

هل القرآن الكريم يقصر الحقيقة بين الأسطر؟ أم أنه هو الذي يأمرك، بأمر شرعي واجب، أن تقرأ الكون، وتنظر في السماوات والأرض، والدواب والجبال، والشجر والبحار... وحتى في الأنفس والآفاق؟

لذا، فإنَّ مفهوم القراءة، في أول آية نزلت، يتجاوز قراءة الحروف، إلى قراءة الحروف مع قراءة الكون، قراءة الكلمات مع الجنين، قراءة الجمل مع الإنسان... هي قراءة تأمل، والتأمل كذلك نوع من أنواع القراءة.

وأنهي هذا الطرح بأن أعذر هذا الفيلسوف، ولو نسبيا؛ ذلك أننا نحن المسلمين، لم نقدم عمق قرآننا، ولب سيرة نبينا، لمثل هذه العقول الكبيرة، التي هي تتحكم اليوم في العالم، وهي التي تمارس الحركة والإنتاج نيابة عنا؛ وهم لأجل ذلك يقرأون قرآننا بعقلية الإنجيل، وسنتنا بروح التلمود؛ فينتهي بهم المطاف إلى قناعات خاطئة، لنا فيها جزء من المسؤولية والذنب، ولا ريب.

نص سؤال الدكتور بوبلال:

Essalam Oustad Baba Ammi

Je voudrais connaitre votre avis sur le philosophe contemporain Michel Onfray pour qui une des devises est : «il faut mettre le moins de livres possibles entre soi et le monde»; car pour ce dernier, un excès de lecture développe bien la spiritualité mais éloigne quelque peu de la vérité, car en finalité notre conception du réel serait celle dictée par la profusion de livre; d'où un choix sélectif de livres qui doivent ouvrir la voie. Je vous donne aussi un lien vidéo vous permettant de suivre l'un de ses débats : «comment mener une vie de philosophe». Pou information ce philosophe est de tendance existentialiste, hédoniste, mais peu importe ce ...qui m'intéresse c'est votre propre analyse

لنترك البراءة تتنفس جرعات من الأمل

الدخول المدرسي فرصة نادرة ووحيدة في العمر، وهي مبلغ المنى للبراعم الندية التي تتمناه وتحلم به بلا حدود؛ فليس من الحكمة، ولا من العدل، ولا من التدبير الحسن، أن ننغصه عليهم، بملاحظاتنا وخلافاتنا وصراعاتنا وحماقاتنا، مهما كانت مشروعة أو غير مشروعة، مقبولة أو غير مقبولة؛ فلنُبقِ بالجدل في مستوى الكبار - إذا كان ولا بدَّ - ولنترك البراءة تتنفس جرعات من الأمل، وتحيا ساعات من الهناء، وتتملى كلَّ لحظة، وكلَّ ساعة، وكلَّ يوم يمرُّ بهم، ويرسم خريطة وجدانهم؛ فتورق قلوبهم حُبا، وتثمر عقولهم حكمة، وتنشر جوارحهم عبير الجمال والخيال عبِقا.

انظر أخي إلى وجه ريحانتك المشرق، وتصفحي أختي عيني هذا الملاك الذي يحمل المحفظة، ويعلي صوته بدعاء الخروج من البيت، ثم يلتحق بموج من أقرانه صاخبٍ، فيذوب بينهم، ويصير قطرة في بحر،

وطائرا في سرب، وواحدا من المجموع؛

هنا تتشكل ملامح شخصيته ملمحا ملمحا، وهناك تصاغ أفكاره فكرة فكرة، وهنالك فقط يتحول من فرد مجرد إلى شخص متميز مختلف؛ يهب الحياة بعض صفاته، ويُذيق الدنيا بعض صفائه؛ فيرسم سطور التاريخ بألوان زهية بهية، ويُلهب الحماس في عالم بات متعطشا للمعنى، جائعا لكل ثمرة من الخير والزكاء والنماء...

هنيئا لكم جميعا، ولليوم ما بعده... وأخص بالتهنئة المدارس العلمية، واحدة تلو أخرى... وأخواتها العامة والخاصة واحدة واحدة، في كل ركن من أركان بلدي الحبيب: الجزائر.

رحمك الله يا كريمة، ابنة الفخّار[1]

على إثر وفاة المعلمة المربية

كريمة فخار، موتَ فجأة

قبل عقد ونصف العقد من الزمان، كانت ثمة بذرةٌ لفكرةٍ، لا يُعلم حينها هل ستنتش أم تضمُر، هل سيكتب لها البقاء أم يسَّارع إليها الفناء؛ هي فكرةٌ أحرى بنا أن ندعوَها «ما قبل الفتح»، وحينها دُعي الناس للإنفاق بأنفسِهم وأموالهم، بمهجِهم وأفئدتهم... فاستجاب مَن استجاب طواعيةً، وأعرض مَن أعرض لا لتقصير أو قصر فيه، ولكن لأنَّ ذات الفكرة قد بدت يومَها على غير المألوف، هي إلى الجنون المشروع أقرب منها إلى التعقُّل الرتيب؛ لكنَّه جنونٌ يُلقي بفتيله في

(1) على إثر وفاة الأخت كريمة فخار، المعلمة في المدرسة العلمية، ثم المشرفة على مشاريع للتعليم في القرارة، الداعية إلى الله بالحال والمقال، وذلك عشية السبت 24 جمادى الثانية 1437هـ/ 2 أفريل 2016م، بالقرارة. تغمدها الله برحمته الواسعة، ورزق أهلها، ورزقنا الصبر والسلوان، وحسن الذكر والدعاء، وجميل العبرة والاعتبار.

محبرة حبِّ الله سبحانه، والإنصافِ لرسوله الكريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والنصرةِ لدينه وأمَّته عليها شآبيب الرحمات... بلا قياسٍ للمخاطر، ولا حساب للمصاعب؛ ما دام الأمرُ مصبوغا بصبغة الرضى، محفوفًا بمعاني المدى، مسجيًّا بكريم النَّدى...

يومَها بعث الله رجالاً ونساءً عرفوا الله، وعرفوا أوامره، فتيقنوا فيه سبحانه، وأدركوا أنَّ المجاهدة في سبيله، وأنَّ الجهاد باليراع لأجله، وأنَّ تنشئة الإنسان على خُلق المصطفى حبيبِه، كلُّ أولئك هو «سبيل المؤمنين» في كلِّ عصر ومصر، وفي كلِّ بال وحال.

ولقد أدرك هؤلاء، بتوفيق من المولى الحليم، أنَّ زرع الأمل ولو في أرض سبخةٍ، وأنَّ استمطار الرحمات من الكريم المنان لا يكون بالتواكل والتثاقل، ولكن بالمصابرة والمثارة والمرابطة؛ فعقدوا العزم، وشمروا عن سواعدهم، بل إنهم حقًّا وتحقيقا استعدوا لقطع الوحل الذي يطيِّر من كلِّ جانب... فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانت يومها «المدرسة العلمية» إلى جوار أخواتها وإخوانها[1] من مدارس، وبعثات،

(1) أقصد بها جميع المشاريع التي نشأت في الحميز، من أوائل القرن، منها: مكتب الدراسات ومشاريعه، والمنار ومشاريعه، والبيان... وغيرها من المبادرات التي تذكر فتشكر.

ومعاهد، ومصليات، ومساجد، وجمعيات، ومؤسسات، ومبادرات... ازينت بها الحميز ابتداءً، ثم سافر أريجها إلى أصقاع الأرض، واستقرَّ في العديد من البلاد، والأوطان، والقارات... بتوفيق من الله، وحسن عون منه، سبحانه.

كانت الكريمة، ابنة الفخار؛ إحدى المرابطات المجاهدات الأوَّل؛ فكتب لها حظ السبق، وحظوة التأسيس، وأجر المنفقين «من قبلِ الفتح»، ونالتها مثوبة المقاتلين أوان البذر؛ لكأنها سمعت يومها نداء ربها الكريم، بقلب خاشع، وعقل ساطع، وجوارح متوفزة متوثبة[1]: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[الحديد: 10]...

أجابت كريمةُ واستجابت لنداء ربها: بلى يا ربنا، بلى... فأقدمت وما أحجمت، ثم بادرت فما تربَّصت وما ارتابت وما غرَّتها الأماني، وما غرَّها بالله الغَرور... فنالت بحول الله تعالى الحسنيين، وآتاها ربها من الأجر الكفلين، وجعل لها نورا تمشي به في الناس،

(1) التوفز والتوثب والنشاط الدائم الدائب، من أبرز صفات كريمة فخار رَحِمَهَا ٱللَّهُ.

وعند ربِّ الناس[1]...

وها هي اليومَ، ثاني[2] إطار، ومعلِّم، ومبادرٍ، وزارعٍ... من مشاريع المنظومة (مكتب الدراسات)، تغادرنا إلى جوار ربها، وتسلم لمن بعدها قياد المسؤولية، ثم تذكِّره بأنه يوما ما آيلٌ إلى ما آلت إليه... وأنَّه لا يبقى من المرء إلاَّ عمله الصالح، وذكره الحسن، وجميل فعاله وخلقه...

رحمك الله يا كريمة: ابنة كرام، وزوجة كريم، وأخت كريم... حركتِ فينا معاني اليقين، وأعدت صياغة الأولويات في حياتنا، وما دريت كم لك من مكان ومكانة في قلوبنا؟ وما علمت كم تركت من فراغ في صدور تلاميذك وتلميذاتك، وأخواتك وإخوانك، وأولياء جميع مَن كنت له معلِّمة وأمًّا وأختا وقدوة ومثالا...؟

جميعنا يذكرك بخلقك الحميد، وقد وافاك الأجل في قرارة الخير، بلدك ومحتدك ومسكن أمِّك، ومرتع ذريتك... وفي قلب غرداية، والجزائر، والحميز...

(1) تتنزل هذه المعاني منزلة الدعاء، ولا نزكي على الله أحدا.

(2) كان المرحوم عبد العزيز بيوض، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، أول من توفاه الله، من مشاريع المنظومة، وذلك في شهر أكتوبر 2012، وقد كتبت يومها: «**موت الفجأة، ودعوة للتغافر**».

تعتلين عرش الفضل والفضيلة، وتتربعين على كرسي الفخر والفخار...

ولا نملك إلاَّ أن نردِّد ما تعلَّمناه من حبيبنا رسول الله، مما كنتِ تعلمينه أبناءك البررة، ليكون لك ذخرا يوم اللقاء: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، مستذكرين حديث رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، مما رواه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئرا لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبَّله وشمَّه؛ ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرُفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: **يا ابن عوف، إنها رحمة** ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ:

«العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاَّ ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

ونرددها مؤمنين محتسبين موقنين:

«العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاَّ ما يرضى ربنا، وإنا بفراقكِ يا كريمة لمحزونون».

المدرسة بين الانتقاء والارتقاء: المدارس العلمية عينة ونموذجا

في مقال لعلي عزت بيجوفيتش بعنوان «**هل نربي المسلمين أم الجبناء؟**»، يقول: «في الحقيقة، نحن نربي شبابنا تربية خاطئة منذ قرون، نتيجة لعدم فهمنا للفكر الإسلامي الأصيل».

نظرةٌ فاحصة في مدارسنا العامة والحرة والخاصة، يتبين منها أنَّ ثمة سبيلين أمام المدرسة في فلسفتها وفهمها لحقيقة التربية، وهما: إما أن تكون مدرسة انتقائية، أو تكون مدرسة ارتقائية. والجمع بين المنهجين متعذر، وقد يكون مستحيلا.

كيف ذلك؟

إما أن تكون المدرسة انتقائية، بأي شكل من أشكال الانتقاء: في العرق، أو في الجنس، أو في الطبقة الاجتماعية، أو في المستوى، أو في مدى الالتزام؛ وهذه غالبا هي أشكال التمايز والتميز الاجتماعي؛ ولكلٍّ وأسبابه ومبرراته.

أو تكون ارتقائية، تجمع بين الأعراق، والأجناس، والطبقات الاجتماعية، والمستويات العلمية، ونسب الالتزام؛ بلا تمييز ولا تنقية ولا تصفية؛ وبخاصة إذا كان لها حرية الاختيار أوان تسجيل التلميذ فيها، وأعني بذلك المدرسة العمومية حين تكون في حيٍّ راق، أو الخاصة أو الحرة، التي تملك حرية القبول أو الرفض.

في الحالة الأولى، أي المدرسة الانتقائية، قد تحقق المدرسة نتائج جيدة، في المستوى التنظيمي، وفي «اختبارات وشهادات الحاجز»: الابتدائية، والمتوسطة، والثانوية؛ وقد تكسب بذلك صيتا وشهرة، وتكون لمن لا يستوعب حقيقة التربية لفهمه الخاطئ بأصالة الإسلام، تكون له مثالا ونموذجا، رغم أنها ليست شرا كله، ولا يمكن أن ترفض كلية، بل وأحيانا تكون مفروضة بحكم البيئة والمحيط وصورة التاريخ.

أما الثانية، أي المدرسة الارتقائية؛ فهي مدرسة تهددها شتى صنوف التقلبات، ويكون العمل فيها صعبا، وتنظيم الصف وتشذيب الأخلاق يأخذ جهدا مضاعفا، وقد لا تكون النتائج دائما حسب المأمول؛ فلا تجد المدرسة بالضرورة شهرتها ومكانتها الاجتماعية التي تصبو إليها.

هل هذا يعني أن تقبل المدرسة كلَّ واحد، مهما كان ضعفه أو مستواه الخلقي متدنٍّ سافل؟

ليست المدرسة بالطبع «مؤسسة لإعادة التربية»، وإنما هي مشتلة للتربية، فهي تضيف إلى جهد الأولياء عملا يحسن من سلوك الأبناء، فهي لا تؤسس التلميذ من الصفر، ولا تصنعه من العدم؛ وبالتالي فإنَّ مستوى معينا من الخلق بخاصة، ومن الإدراك العلمي كذلك، شرط ضروري للتلميذ، بحيث يكون الضابط أن لا يتعدى ضررُه إلى التلاميذ الآخرين، أي أنه حتى ولو كان فيه فساد أو نقص أو ضعف، فإنه لا ينقله إلى لِداته وأقرانه، ويعكر بذلك جو المدرسة، ومن ثم يطبق في حقه وحق المدرسة معنى القواعد الكلية: «التخلية قبل التحلية»، و«لا ضرر ولا ضرار».

لكن، كذلك، إذا قبلت المدرسة أصحاب النقاط العليا فقط، أو الذين تربوا تربية حسنةً فقط، أو أبناء طبقة اجتماعية راقية فقط، أو جنسا معينا فقط، أي الإناث أو الذكور فقط؛ فإنَّ النتيجة تكون «تشكيل مجتمع مكيف اصطناعي» ليس له تمثل حقيقي في واقع الناس؛ ومن ثم فإنَّ هذا الطفل ينشأ على نمط معين، وحين تنتهي دراسته يصطدم بالشارع، وبالواقع، ويكون في الغالب عاجزا عن التفاعل معه؛ فيفقد

توازنه، ويُفقد المجتمع تناغمه.

أقول هذا، وأنا على وعي تامٍّ أنَّ المسألة تعني «المدارس العلمية» قبل غيرها؛ وهي في مرحلة اختيار الطرق والنماذج، واختبار الفروض والاحتمالات؛ ومن ثم فقد يكون جميع ما ذكرتُ من إيجابيات وسلبيات متمثلا فيها قبل غيرها؛ ذلك أنه أريد لها من أول يوم أن لا تكون - بفروعها - نمطا واحدًا، وأن تعمل على إيجاد وصناعة «النموذج» لمدرسة جزائرية، لها القدرة على تمثل الواقع والمجتمع كما هو، لا كما تريده أن يكون؛ وبذلك تنال فضل الارتقاء بالمجتمع، لا أن يقال عنها «الكلام المنمق» وكفى.

فهل حققت «المدارس العلمية» مقاصدها التي صيغت لها، والتي لا تزال تصاغ؟

سابق لأوانه أن نصدر الحكم، والغالب في الناس اليوم هو الانطلاق من مثال أو مثالين، ثم تعميم الحكم، إما إيجابا أو سلبا؛ من مثل أن يكون للواحد ابن نال نقاطا جيدة في شهادة معينة، فيعمم الحكم بالانبهار مثلا؛ أو أن لأحد تجربة فاشلة مع إحدى المدارس فيطلق وابل الانتقام عليها بلا وعي ولا روية؛ وهذا منطق أعوج في فهم حقيقة التعليم وصعوبته.

كذلك، ليس من الحكمة في شيء أن نتعصب لها أو نتعصب عليها، مهما كانت المبررات؛ ذلك أنَّ «المدارس العلمية»، وأخواتها والقريبات منها والبعيدات، مجتمعة، لا تزال في بداية الطريق، ولا تزال تصارع الأمواج العاتيات من تراكمات الماضي، ومن الترسبات الذهنية والبيئية والسياسية والفكرية... التي لم يكتب لها أن تمرَّ على «مشروع مجتمعٍ شامل»، وذلك من فجر الاستقلال إلى اليوم.

وبالتالي، فإنَّ المدارس الخاصة والحرة، هي «قاطرات للتغيير»، وليست هي الحقل ولا هي المجال الأخير للتغيير؛ فقد ننقذ من خلالها مائةً أو ألفا من التلاميذ، ولكن يبقى الملايين من التلاميذ، ومن أبناء الوطن، ينتظرون حظهم من الاهتمام، ولن يتأتى ذلك إلا عبر «المدرسة العمومية»، والمدرسة المستوعبة لجميع أبناء هذا الوطن، بلا انتقاء... ولكن، بنية الارتقاء.

في جلسة حميمية بقصر بنورة المضياف، كانت لي مع الأعيان حوارات صريحة؛ وحين السؤال عن المدرسة العلمية، قال شاب كان ضمن الحاضرين: «سمعنا أن في المدرسة العلمية بعض البنات يلبسن الفيزو (سروال قصير مشخص)»؛ ورغم أنَّ الأمر ليس كذلك؛ فقد يكون ثمة حالة أو حالتان، إلا أنني أجبته

بالآتي: ما دامت المدرسة العلمية لا تستقبل بنات يلبسن الميني جيب، فهي لم تحقق بعد أهدافها التي صيغت لأجلها.

تحير الشاب، وقال: لم أفهم.

قلت له: هل هذه البنت التي تلبس هذا اللباس لها الحق أن تعرف الحق، وأن تسمع الحق، وأن تهتدي بالحسنى؟ أم أنه غير مأسوف عليها، وعلينا أن نلقي بها في الجحيم؟ باختصار: هل نعتبرها ابنة لنا أم هي غير ذلك؟

قال، نعم هذا واجبنا، وذلك حقها.

فقلت: أتمنى أن يكون «للمدرسة العلمية» فروع بها جميع بنات الجزائر، بكل أطيافهنَّ، وأن لا تلبس الواحدة منهن حجابها، ولا تستر عورتها، إلا باقتناع وروية، وأن لا يكون الهدف سوى «تأمين الطريق لها»، لا أن نخوفها بالإسلام، ونرهبها باسم الإيمان، أو أن نجمع كلَّ المتحجبات في جزيرة واحدة، ونميزهن عن المجتمع، كما جمع البعض كلَّ السافرات في جزيرة، وهو حاليا يعمل على كسب قلوبهن، والغالب فيهن - حسب اعتقادنا - هو «العفة والطهارة» لا «الفساد والدعارة»، إلا أن عدم لبسها للحجاب قد

يكون لأسباب اجتماعية، ولظروف سابقة لا سلطان لها عليه.

رسول الله ﷺ جمع في المدينة المنورة كل الأطياف من الناس: المؤمنين والمنافقين والكفار والمشركين وأهل الكتاب؛ ووثق العلاقة بينهم بميثاق وعهد للأمان، وكان يصلي إلى الكعبة في مكة وفيها أزيد من ثلاثمائة صنم؛ فهو لم يغادر الساحة، ولم يشترط «بيئة مكيفة طاهرة معقمة» للعبادة والارتقاء؛ كذلك نحن.

وحين الدخول المدرسي تقدم ولي إلى مدير المدرسة، وهو يحتج أنه رأى بنتا في الصف الأول ابتدائي، ترتدي لباسا بدا له غير سوي؛ فقال للمدير: هل تقبلون بهذا؟ وهل بناتنا يدرسن مع أمثال هذه البنت؟

أجابه المدير: طبعا، فإن كنت قد ربيت ابنتك، وهي مقتنعة بما تلبس، فإنها ستؤثر ولا تتأثر؛ وإن كان ما تفعله وما تقوله ليس عن قناعة وإيمان، وإنما جاء بالقهر والشدة والتقليد، فإنها حتى ولو لم تدرس مع هذه، سيأتي اليوم الذي تخلعه عنها... والعالم اليوم مفتوح على مصراعيه، لا باب له ولا صور...

ويبقى السؤال المحير: لو أننا أقصينا من مدراسنا

فئة معينة من أبنائنا وبناتنا، ثم اقتصرنا في التربية والتعليم على فئة معينة؛ لاعتبارات معينة، وأسباب قد تكون مقبولة أو غير مقبولة؛ فهل نحن نكرر تجربة التمييز العنصري، الذي مارسته فرنسا ضدنا، للأسف، لأزيد من قرن من الاستعمار؟ وهل نعمل بذلك على تفكيك عرى المجتمع عروة عروة، من حيث أردنا الصلاح والإصلاح؟

ورسالتي إلى «المدارس العلمية»، وإلى كل مدرسة ومدرس في وطننا العزيز، أن نجتهد سويا، معا، متكاثفين، متعاونين... أن نربي «مسلمين أقوياء أسوياء أبطالا، لا مستسلمين وديعين، خدما». ومرشدي في هذا هو مقال لعلي عزت بيجوفيتش، بعنوان: «هل نربي مسلمين أم جبناء؟».

وتبقى تجربة «المدارس العلمية» تجربة بشرية لها وعليها، وهي جهد واجتهاد في مواجهة الكثير من الشكاية والنكاية، وفي حرب ضروس مع الهرج والمرج، ولكن مع ذلك، هي من رَوْح هذا الدين تستنير في مسيرتها، ومن روح هذ الوطن تستمد منه نفحتها: هي مدرسة جزائرية، وكفى.

تلة الرماة،
المرتقى الصعب

غزوة أحد، تلك التي كانت للمسلمين درسا لا ينسى، وعبرة لا يشترى بها ملء الأرض ذهبا؛ ذلك أنَّهم طعموا - فيها - مذاق الهزيمة، ونالهم - منها - شيء من ريح الانهزام؛ وحينها تيقنوا أنَّ النصر ليس وعدا أبديا، وأنه أسباب ومقدمات، وبواعث وتحضيرات؛ إذا ما وفوها حقها ومستحقها نُصروا وغَلبوا، وإلاَّ انكسروا وغُلبوا؛ وهذا فحوى قوله تعالى: «ليس بأمانيكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب...».

لكن، في هذه اللحظة الصعبة، تغير كلُّ شيء؛ وبخاصة حين بدأ الجنود يجمعون الغنائم، ويحصدون المكاسب؛ لحظتها همَّ عدد من الرماة بالمغادرة، وكان الصحابي الجليل عبيد الله بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يذكرهم بأمر رسول الله ﷺ؛ إلاَّ أنهم وإن لم يعصوا أمره عَلَيْهِ السَّلَامُ، غير أنهم أوَّلوه أنَّ الأمر لا يشمل نهاية المعركة، وإنما أوانها فقط... فغادروا التلة، وتركوا الظهر مكشوفا، ومكنوا لخالد ومَن تحت إمرته رقاب

الجيش المسلم؛ فدارت الدائرة لصالح الكفار، ولولا أنَّ الله سلم، لكان ما كان من أمر رسول الله وصحبه الكرام.

ما من شكٍّ أني لست بصدد ديباجة مقال عن السيرة النبوية، ولا في مقام استنباط العبر والمعاني اللامتناهية من هذا الحدث الخطير في تاريخ البشرية قاطبة؛ وإنما مقصدي هو البحث عن «تلة الرماة» في الصراع الحضاري الذي تدور رحاه في عصرنا، بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، وبين الإيمان والجحود:

فأين هي تلة الرماة اليوم؟ ومن هم الرماة المكلفون بالصبر عليها؟ وهل سيتمكنون من استنباط العبر، ومن ثم يلازمون التلة، مهما كانت الظروف؟ أم أنهم يستعجلون ويلتحقون بصفوف المنتصرين، رغبا أو رهبا؟

أجزم أنَّ تلة الرماة اليوم هي «حقول التربية والتعليم»، وفي المستوى الأشمل هي «الخدمة ونفع الخلق»... ذلك أنَّ هذه التلة، ليس فيها مكاسب، ومن عليها لا يبدو أنه يحارب، ولا يقال عنه «بطل»، مثلما هو الحال مع «السياسي» و«الاقتصادي» و«المشاهير» من كلِّ فن وحقل؛ ثم إنَّ النصر قد لا ينسب لهم، وقد يعتقد الكثيرون أنَّ هؤلاء لا ناقة لهم ولا جمل

فيما يناله الناس من تقدم وإنجاز... وبالتالي، قد يُظلمون، وقد لا يفهم أحد حقيقتهم، وقد يكونون مثار جدل...

ثم إنَّ الصبر على تلة الرماة، مهما كانت الظروف والأحوال، أمر عسير، ومرتقى صعب، لا يقدره إلا الفحول، ولا يستطيعه إلا المقرَّبون، ولا يملك الثبات عليه إلا المؤيَّدون الملهمون الربانيون، ممن محق «أناه» وسحقها، وانصهر في الجماعة صبرا وعشقا، والتزم الوعي الجمعي مذهبا ومسلكا، ولم يكن في إشارته يحيل إلا إلى الله تعالى، وحده، هو صاحب الأمر والملك والخلق، لا شيء يكون إلا بحكمه وعلى مقتضى حكمته...

على تلة الرماة اليوم يقف المعلمون الصادقون، والخدام المتفانون، والنافعون لخلق الله الأحمديون... هم قلة إذا قيسوا بأهل المناصب والوظيف، وهم ثلة يسيرة بين صفوف أهل المكاسب والرغيف؛ وهم «لا شيء في عيونهم»، إلا أنهم مصدر كل بركة ورحمة تنزّل من عند الله، سواء في ذلك عرفهم العارفون، أم جهلهم الجاهلون، أم جحدهم الجاحدون... لا فرق.

هؤلاء، ومن كان على شاكلتهم، بغض النظر عن انتمائه وجغرافيته، وعن فصله وأصله... هؤلاء هم

رماة هذه الأمة؛ وظننا بحول الله تعالى فيهم، أنهم سيثبتون، وأنهم سيصبرون، وأنَّ الإسلام بفضلهم سيعم الأكوان، وسيغمر العالمين؛ وعد الله، إن الله لا يخلف الميعاد.

الحوت الأزرق:
من هو المجرم ومن الضحية؟

تحول الناس مع تنامي العالم الرقمي إلى حالة من الهوس أحيانا، والاستسلام الصامت مع التهوين أحيانا أخرى، والتهويل المخيف المبالغ فيه في بعض المناسبات؛ وحار الجميع بكلِّ أطيافهم وأجناسهم، وبجميع مستوياتهم المعيشية والثقافية؛ ففقدوا السيطرة على هذه الوسائل، وما هي بمطلوبة؛ وعجزوا عن البديل، وهو ما يجب أن يكون.

انتشرت هذه الأيام أخبار الأطفال المنتحِرين، الذين وقعوا فريسة سهلة بين مخالب «الحوت الأزرق» الإلكتروني لا البحري؛ فتجندت بعض المدارس لتوعية تلاميذها، ومنها «المدرسة العلمية» وأخواتها؛ وهذا ما ينبغي أن يكون في جميع المؤسَّسات التربوية؛ وأبانت الملاحظات الظاهرة أنَّ الآباء إلا قليلاً منشغلون ببورصة الدولار واليورو، والأمهات يعشن في عالم آخر من هموم الحياة اليومية؛ وبقي الأطفال هدفا سائغا لمسدَّسات المجرمين، وصيدا سهلا للمفترسين

الشرسين؛ ولكأننا لم نستوعب بعد حجم الخطر، وكأنَّ النار لم تنشر ألسنة لهيبها بين جنبات بيوتنا؛ هو خطر ماثل بننا برعاية منا، وبعناية من سفهائنا.

في مثل هذه المواقف والظروف، لا بد من تنبيهات، ولا مهرب من توجيهات، ولا حجة لمن يدير ظهره لواقع الناس ويسبَح في محيطاتٍ وبحار من مواضيع لم تعد تهم أحدا، يَصيدون سمكا هزيلا لم يعد يغري أحدا، ومن هذه التنبيهات والملاحظات نذكر:

1 أنَّ الأطفال القصَّر، ما لم يبلغوا سن الرشد أبرياء، وكل ما يصدر منهم هو فعل بريء؛ لا يؤاخذون عليه شرعا، ولا عقلا، ولا قانونا.

2 أنَّ هؤلاء الأطفال تقع مسؤوليتهم الشرعية والخلقية والمدنية والقانونية على عاتق أوليائهم؛ ومن ثم ما كان من فعل حسن فهو منسوب إلى الوالدين، وما كان من انحراف أو انجراف فهو في دائرة مسؤولية الوالدين.

3 أنَّ الوسائل الإعلامية المعاصرة، والتقنيات الرقمية الهائلة، والوسائط المتعددة الهائجة، وجميع ما يحوم حولها وما يخدمها: من اتصال بالأنترنت، وخط الهاتف المتصل بالشبكة، وغير المتصل... جميع

ذلك هو واقع تحت مسؤولية الوالدين في البيت، وتحت مسؤولية المؤسسة التربوية في المدرسة، وضمن مسؤولية المجتمع في الشارع؛ ويحرم شرعا أن يقال: هو مما عمت به البلوى، وأننا لا نملك له توجيها ولا تنظيما.

4 أن المطلوب ليس القهر، ولا المنع، ولا التجريم... للأبناء؛ وإنما الواجب شرعا هو التوجيه والمرافقة، والحرص واليقظة؛ فمن وفَّر لابنه مساحة للخلو بنفسه مع الغث والسمين في أي شاشة من الشاشات، فقد أثم وعصَى الله تعالى؛ وما يقترفه هذا الابن مما يحرم شرعا من مشاهدات الفساد، والعري، والألعاب الفاتكة بالضمير، والدعاوى الفاسقة... يكون إثمه ووزره على الوالدين، ولا اعتبار لكونهما يعلَمان أو لا يعلَمان؛ ذلك أنَّ الواجب هو توفير الظروف الملائمة لكي يكون الابن متصلا، في حال الإمكان، لكن في مأمن من قطَّاع الطرق، وفي فجوة من صائدي البراءة.

5 على المساجد أن تقترب في خطابها أكثر من عالم الشباب، وتخاطب الناس بما يفهمون، وبما يعيشون يوميا من تحديات تحملها إليهم هواتفهم الذكية، ولوحاتهم الإلكترونية، وشاشاتهم المسطحة... وأن لا ينفِّروا الشباب بالحديث عن قضايا أكل الدهر منها

وشرب، قضايا لا تعنيهم في شيء، ولا تحرك فيهم اهتماما ولا حرصا؛ فعلى المساجد أن يكون خطابها بهذا النفَس الرباني، وحين تنظيمها لمدارس القرآن الكريم، أن تكون كذلك حاضرة ويقظة في مثل هذه المسائل.

6 على المؤسسات التكنولوجية الخاصة والعامة، الاعتناء بهذا المجال، بتوفير برامج، وتقنيات، ومكتشفات، ومخططات، وتكوينات جادة للناس؛ في علاقتها بالعالم الرقمي، كي لا يسقطوا في فخ الاستسهال الفاجر، ويجدوا من البدائل ما ينجيهم دنيا وآخرة.

7 في حال «الحوت الأزرق»، وما شابهه من الألعاب، هي قانونيا ممنوعة، والأصل أن تجرم الدولة كل من يمارسها، أو يوفرها لابنه، وأن تغرم وتعاقب؛ معاقبة شديدة؛ ثم إن الأصل أن الدولة توفر الحماية لأطفالها، وتوفر الوسائل التكنولوجية المتطورة لتعطيل وإيقاف مثل هذه البرامج، ثم لتوعية الناس عبر وسائل الإعلام المختلفة، بمخاطرها وتبعاتها؛ وإن لم تفعل فقد فرطت وضيعت أمانتها.

8 كلُّ ضرر يترتب عن هذه الوسائل، من ممارسات محرمة، أو جرح للجسم، أو هتك للعرض؛ أو انتحار

أو قتلٍ؛ يقع الذنب والوزر فيه على الأولياء أولا، وعلى من كان مسؤولا ولم يتدخل ثانيا؛ ويجدر بنا أن نعلن بالفتوى التي تقع على «ولي أمرٍ» فرط في حق ابنه أو من يقع تحت مسؤوليته، ووفر له ما به كان هلاكه، وتركه وحاله إلى أن بلغ مرحلة الانتحار؛ وذلك والله أعلم أنه في صورته هذه، هو قتل «شبه العمد» كما تعرِّفه مصادر الفقه، وهو: «قصد ضرب الشخص عدوانا بما لا يقتل غالبا، كالسوط والعصا» ونضيف أو البرنامج الرقمي الذي ينتهي بالقتل، مثل برنامج «الحوت الأزرق» وما يشبهه؛ لأنه وُضع أساسا لهذا الغرض.

9 ديةُ القاتل شبه العمد، أي «ولي الأمر» الذي يعرف أن هذا البرنامج ينتهي بالقتل، ووفر الظروف، وسمح لابنه باستعماله، ثم انتهى منتحرا؛ الدية على اختلاف المذاهب، منهم من يقول: «مائة من الإبل»، ومنهم من يضيف «الكفارة المغلظة»، ومنهم من يضيف «حرمانه من الميراث»؛ وعلى كلٍّ، الواجب على المؤسسات الرسمية والعرفية والعلمية أن تبث في الأمر، وأن لا تترك ذلك مسألةً عالقة، وحكما معلقا؛ كما هي الكثير من المسائل الحكمية والنوازل العالقة والمعلقة إلى اليوم.

10 إنَّ مثل هذه التحديات في ازدياد مطرد يوما بعد يوم، فهي حرب معلنة لا آخر لها، على الإنسان، وعلى البراءة، وعلى القيم، وعلى المجتمع، وعلى الدين، وعلى العرض... ولا سبيل لمواجهتها وإيقاف جيوشها إلا بالجدية، والصرامة، والتجنيد؛ أما إذا تركنا الحابل على الغارب، وأَلِفنا التفريط في الواجب؛ فإننا سنُقتل كل يوم مرات ومرات، ولن نملك حيالها وليا ولا نصيرا.

11 ولا بد من التذكير أنَّ الله تعالى أوجب حرمة النفس، وعد من قتل نفسا «كأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها كأنما أحيى الناس جميعا»، ومثل هذه الوسائل تعبث بحرمة النفس الإنسانية، المؤمنة وغير المؤمنة على السواء، وهي خطر على البشرية جمعاء.

12 تتضافر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، وأحكام الفقهاء والعلماء المسلمين؛ على أنَّ تضييع تربية الأبناء، وتركهم عرضة للشياطين يعبثون بدنياهم وآخرتهم، جميعُ ذلك محرم شرعا، آثم صاحبُه؛ ولا ريب في صحة قولهم: «إنَّ أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهلُه»، ومن تمام الجهل، عدم التفريق بين الخير والشر، وغشيان مواطن الشبهة والحرمة، والتساهل فيما لا يجوز التساهل فيه؛ وتأتي اليومَ

أكبر فتنة في هذا الشأن، عبر الشاشات والشبكات الرقمية؛ ذلك أنَّ الناس كانوا يقصدون منازل الفسق والفساد، أمَّا اليوم فهي التي تقتحم عليهم ديارهم، وغرفهم، وخلواتهم، ولا تفرق بين رجل وامرأة، ولا بين كبير وصغير، ولا بين عالم وجاهل... وهي تهددهم في أعظم ما يملكون: الإيمان، والخلق، والمصير، والطمأنينة، والعافية، والأمن...

من عجب أني كنت أطالع التفاسير لسورة التغابن، ولقد وصلت إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التغابن: 14-15]... كنت مع تفسيرها، والبحث عن سبل تفعيلها في الواقع؛ فقطَعت علي حبلَ تفكيري فاجعةُ «الحوت الأزرق»؛ ورأيت في هذا المقال مناسبة لهذا الفهم والتفعيل؛ ولكنَّ هذه مجرد صرخة، ولا تكفي الصرخة حيث تجب اليقظة، وإني محمِّل كل مسؤول مسؤوليته عند الله تعالى، وأول من يتحملها أنا، وأستغفر الله من تقصيري، والله ولي المتقين.

قصتان

ملحمة جزائريٌّ قايضَ جميع مالِه مقابل سماع الأذان

- قصة قصيرة واقعية -

جلستُ إلى حصَّة «شاهد على العصر» مع الشيخ عبد الفتاح مورو، ما يقارب خمس عشرة ساعة، أغترف بالأسماع والأبصار، وبنهم شديد، حلوَ الكلام، وعصارة المعنى؛ مِن عالم عامل، صادق حاذق، منصف صريح؛ ولقد أشار في حواره إلى «توفيق الشاوي» ودوره في مساندة المقاومة في شمال المغرب العربي، إبان الاحتلال الفرنسي والإيطالي؛ ولم أكن أعرف هذا الاسم من قبل، فرُحتُ أحفر بحثا عنه، ولمتُ جهلي بتاريخي وتراثي القريب؛ ثم عجلت فنزَّلت كتابه الشيق القابض للأنفاس: «**مذكرات نصف قرن من العمل الإسلامي**»، فبادرت إلى النحت فيه قبل أن يبادرني الأجل؛ ولقد أشَّرت على الكثير من النصوص والمعاني، التي تستوجب التحليل والاستثمار العلمي/ الحركي؛ ومن ذلك، هذه الشهادة، التي هي بمثابة قصة قصيرة، بل ملحمة كبيرة؛ في حقِّ المهاجرين

الجزائريين في فرنسا، يعود تاريخها إلى عام 1947؛ وهي قصة درامية إنسانية، ملحمة قمَّة في البطولة والشهامة؛ ليس المشاهير والأسماء الكبرى هم من يقودون زمامها، ولكنهم مواطنون من العمال البسطاء؛ إنهم يرفضون أن يكتب التاريخ تحت ظل السيوف، أو في بلاط الأمراء؛ أو حتى بين أروقة المشاهير.

وحق لنا أن نعلن أنَّ: التاريخَ ملك للذي يصنعه؛ حتى وإن نساه المؤرخ وتنكر له.

وعنوان القصة في مصدرها: صورة شهيد جزائري.

أما مسرحها المفترض والحقيق فهي هذه البلاد والبقاع: باريس، ميناء مرسيليا، لبنان، سورية، جدة، ميناء الإسكندرية.

ونصها الكامل مع بعض التصرف كما يلي:

«حين نشبت الحرب في فلسطين عام 1947م، وأوان التحام الجيوش العربية مع العصابات الصهيونية، أصدرت هيئة الأمم بالتواطؤ مع أمريكا وحلفائها الغربيين، قرارا بوقف القتال؛ وكان الهدف من وقف القتال إعطاء اليهود فرصة لترتيب شؤونهم، واحتلال أكبر قدرٍ ممكن من فلسطين، بإمداد الإنجليز فرصة للضغط على الحكومات العربية، بدفعها إلى الانسحاب...

وأول ما تضمَّنه قرار وقف إطلاق النار فرضُ حظرٍ على توريد الأسلحة إلى دول المنطقة، ابتداءً من موعد وتاريخٍ محدَّد؛ في ذلك الوقت كانوا على علمٍ أنَّ الدول العربية لم يكن لديها أسلحةٌ كافية، وسارعت بريطانيا التي كانت المورِّد الرئيس لها إلى وقف شحن الأسلحة للبلاد العربية؛ أمَّا اليهود فقد رتَّبوا لتخزين الأسلحة والحصول عليها بطرق غير رسمية - ظاهرا -؛ لأنهم كانوا عصابات قبل أن يكونوا دولة معترَفا بها عالميا؛ اليهود إذن لم يتأثروا من الحظر.

وكان للحكومة اللبنانية علاقةٌ وثيقة بفرنسا، التي باعت لها شحنةً من الأسلحة، كانت معدَّة لشحنها إلى لبنان؛ وقد اتصل بي (الكلام لتوفيق الشاوي) السفير اللبناني الشيخ أحمد الداعوق، وكان من اللبنانيين المسلمين المعروفين، وهو من أسرة مرموقة. وقال:

«إنني أريدك في أمر عاجل جدًّا... أريد مساعدتك في أمر هامّ.. هو أن شحنة أسلحةٍ اشتريناها من فرنسا، موجودة الآن في الميناء بمرسيليا، ويجب شحنها قبل اليوم المحدَّد من قِبل هيئة الأمم، لمنع تزويد الدول العربية بالسلاح. وحكومة فرنسا باعت لنا سلاحا قبل هذا التاريخ؛ ولكنَّ الصهاينة لهم نفوذ في النقابات؛ فحرَّضوا العمَّال على الامتناع عن شحن

هذه الأسلحة، وأصدرت النقاباتُ قرارا يُلزم العمال بالامتناع عن شحنها. والبضاعة ملقاةٌ الآن في ميناء مرسيليا، وليس أمامنا إلاَّ ثمان وأربعون ساعة (48) لوضعها في السفن؛ فإذا لم يتم الوضع فإنَّ الحكومة الفرنسية ملزمة بأن تستردها ولا ترسلها».

يقول الشاوي، قلت للسفير: «وماذا تريد أن أفعل؟!»

السفير الداعوق، قال:

«إنَّ هناك عمالا كثيرين من الجزائريين والمغاربة في مرسيليا، وإذا استطعت أن تحضُر معي لأقنعهم بأن هذه القضية قضية عربية/ إسلامية، وتطلب منهم أن يتصدَّوا للنقابات، ويخالفوا قرارها الذي يلزمهم بالإضراب عن شحن هذه الصناديق، تكون قد أديتَ لنا خدمة كبيرة، ولبنان ستعترف لك بهذا الفضل».

الشاوي، يقول مسترسلا:

«اتصلتُ فورا بمندوب حزب الشعب الجزائري بباريس في ذلك الوقت، وطلبتُ منه أن يتكفل بهذه المهمة مع السفير، ورحَّب بالأمر، واتَّصل بأصحابه هاتفيًّا في مرسيليا فورا، وذهب مع السفير بسيارته ليلاً؛ حتى وصلوا إلى مرسيليا في الصباح. وفي الساعة الثامنة صباحًا، قبل أن يفيق أيُّ أحد، كان العمَّال

الجزائريون محتشدين في الميناء، يحملون الصناديق إلى السفينة، مخالِفين قرار النقابات، متَحَدِّين المسؤولين عن النقابة. وتصدَّوا لمن أراد أن يعارضهم بالسكاكين والأسلحة الخفيفة، وكانوا حاذقين في المواجهات مع مَن يبغي ظلمَهم. وبذلك طَرَدوا من الميناء العمَّالَ الذين كانوا يمثِّلون النقابات ممن أراد تنفيد قرار النقابة. وتم الشحن قبل الموعد المحدد له».

وعاد السفير اللبناني إلى باريس سعيدا، وقال للشاوي: «إنني أريد أن أكافئ إخواننا الجزائريين، فماذا تقترح لهذا؟»

فقلتُ له: «إنَّ الجزائريين قاموا بهذا العمل البطولي، بسب حماسهم لقضية فلسطين، فالمكافأة التي ينتظرونها هي معاونتكم للفلسطينيين في جهادهم المشروع».

* * *

ثم يواصل توفيق الشاوي، في سرد وقائع الملحمة، بتعليق يقول فيه للقارئ:

«ولكي تعرف الفرق بين موقف الأفراد والشعوب، وسياسة بعض الدول، أذكر أنه بعد هذه الحادثة التي وقف فيها هؤلاء الجزائريون هذا الموقف الرجوليَّ المشهود، حضر إلى غرفتي بالمدينة الجامعية أحد

العمَّال الجزائريين، وقال لي:

«إنني أعمل في فرنسا منذ بضع سنوات، وقد سئمتُ الحياة مع هؤلاء الفرنسيين، وفكَّرتُ في أن أبحث عن بلد عربيٍّ أعيش فيه بين المسلمين، وكلُّ ما ادَّخرته من مال دفعته إلى مكتب من مكاتب الأسفار، الذي ينظِّم رحلات الحج إلى الأراضي المقدَّسة، فهل تستطيع أن تجد بلدًا عربيا يسمح لي بالإقامة فيه بعد الحج؛ وأنا على أتم الاستعداد لكي أقوم بأيِّ عمل من الأعمال، فقد مارستُ مِهنًا كثيرة، وما زلتُ مستعدًّا لأتعلم مهنة أخرى، أو أؤدي أي عمل ممكن، أيِّ عمل شريف يضمن لي لقمة العيش الحلال...».

يقول الشاوي: «عندها تذكرتُ ما قاله السفير اللبناني عن رغبته في مكافأة الجزائريين، لما أظهروه من حماس لتحدي النقابات الفرنسية، التي أثر عليها الصهاينة؛ تذكرتُ ما قدَّمه العمال الجزائريون الأحرار لحكومة بلاده لبنان، من خدمة لا تُنسى، وتوجهتُ إليه فورا، وعرضتُ عليه مطلب هذا الشاب، فردَّ عليَّ بالأسف الشديد؛ معللا ذلك بأنَّ مسألة الإقامة في لبنان ليست في يده، ولا يستطيع أن يساعد فيها، ولكن كلُّ ما يمكنه عمله هو أن يعطيه خطابا إلى رئيس شرطة الميناء في بيروت، لكي يسهِّل له التوجُّه إلى

سوريا؛ حيث يكون أمامه فرصة أكبر للإقامة هناك».

يواصل الشاوي متأسفا حزينا:

«أخذت الخطاب، وسلمته لصديقنا الشابِّ الجزائري، الذي وعد بالذهاب إلى مرسيليا، حيث يستقل سفينة تحمله إلى بيروت، وهناك سيأخذ سفينة تركية للحجاج، قادمة من الأناضول، متجهة إلى جدة، وفي العودة بعد الحج سينزل في بيروت، ويذهب إلى سوريا إذا شاء الله تعالى».

* * *

يقول الشاوي راوي القصة: «بعد أسبوعين فقط من سفر هذا الصديق، وقبل أن ينتهي موسم الحج، فوجئتُ به يدق عليَّ باب الغرفة، ودهشتُ لسرعة عودته، وقال لي:

«إنَّ الحج ضاع عليَّ؛ لأنَّ السفينة التي حملتني من مرسيليا إلى بيروت، مرَّت بالإسكندرية وتوقفت في مينائها مدَّة، ولما وصلنا إلى بيروت لم يسمحوا لنا بالنزول إلى اليابسة؛ لأنَّ السفينة التركية التي كنَّا على موعد لركوبها إلى جدة قد غادرت الميناء قبل وصولنا؛ ثم أمرونا بالعودة مع السفينة التي جئنا فيها إلى حيث جئنا، أي إلى مرسيليا».

قال الشاوي: «لما سألته لماذا لم توجه بالخطاب إلى رئيس الشرطة في ميناء بيروت؟»

قال الشاب الجزائري:

«إنَّ البوليس منعنا من النزول إلى الميناء حتى بقصد السياحة والنزهة؛ وذلك لأنَّه كان على متن السفينة جثمان الأمير شكيب أرسلان، وكان يحيط به عددٌ كبير من الحرس على متن السفينة، وعددٌ أكبر على الشاطئ ينتظرونه، وإنَّ ضابط الشرطة منع من نزول ركاب الترنزيت، دون سبب مفهومٍ، رغم الإلحاح الشديد من الركاب... فضاع منا الحجُّ، وعُدنا إلى مرسيليا في نفس السفينة التي جئنا على متنها».

❊ ❊ ❊

قال الشاوي: «لقد تألمت كثيرا لمغامرة هذا العامل الجزائري الشابِّ الفحل؛ وما أصابه من إحباط، رغم أنه كان على أمل كبير أن أسهِّل له مشروع الاستقرار في بلد عربيٍّ مسلم، وكان عندي أمل في أنَّ سفير الدولة التي قدم لها هذا العامل وأصحابه خدمة كبرى من اليسير عليه تذليل الصعاب، وتوفير الإمكانية والتأشيرة... وقد بدا لي أن السفير كان صادقا في بحثه عن مكافأة لهؤلاء العمال الأبطال... إلاَّ أنَّ

التوقع كان خلاف الواقع».

يقول الشاوي، وهنا عقدة الملحمة:

«ولما رآني الشاب وقد أصابني من الألم ما أصابني، قال لي:

«إنني غير نادم على قيامي بهذه الرحلة التي كلفتني جميع مالي، يكفي أنني عندما رَسَت السفينة في ميناء الإسكندرية سمعتُ أذان الفجر في السَّحر، من مآذن البلد المسلم، وهذا هو الشيء الوحيد الذي استفدته من الرحلة؛ لقد كنت أمنِّي نفسي بأن أعيش في بلدٍ إسلامي حرٍّ مستقلٍّ أسمع فيه الأذان، بعد أن سئمت المعيشة في فرنسا، وما زال عندي أملٌ أن يتمَّ ذلك في يومٍ من الأيام».

أجابه الشاوي، ناصحا واعظا مسليًّا:

«يا أخي، إنَّ الطريق إلى بلاد الإسلام وإلى الإسلام ذاتِه، وإلى الحرية وإلى الاستقلال، يمرُّ عبر ميدان الجهاد ضد الاستعمار في الجزائر؛ وإنَّ هذا المؤذِّن لم يكن يدعوك بـ«حيَّ على الفلاح» للإقامة في بلدٍ معيَّن، ولكنه كان يدعوك إلى الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل شعبك واستقلال بلادك».

❊ ❊ ❊

وتنتهي القصة بهذه الخاتمة الملحمية، على لسان الشاوي:

«بقي هذا الشاب يتردَّد عليَّ إلى أن عاد إلى الجزائر، وعدتُ إلى مصر، وبعد ذلك علمتُ أنه كان من أوائل الذين استشهدوا في ميدان الجهاد أثناء الثورة الجزائرية المباركة».

ثم قال:

«ليس هذا الشهيد إلاَّ نموذجا لآلاف المجاهدين من المؤمنين، الذي بذلوا أرواحهم في مقاومة الاحتلال الأجنبي، إنهم كانوا مجاهدين في سبيل الله، مدافعين عن الإسلام، وعن كرامة المسلمين».

* * *

ولقد هممتُ أن أستخلص المواقف ذات العبرة من الملحمة، لكنني وجدتها في كلِّ سطر، وعند كلِّ فقرة، ترشح بالعبرة والمعنى؛ وكأنها تحكي لنا واقعنا اليومي اليومَ، في صراعنا مع أعداء الحقِّ والوطن، في كلِّ مكان: على حافة قلوبنا، داخل أوطاننا، في جميع بلداننا، داخل الهيئات والدوائر العربية والعالمية... فتركت للقارئ اللبيب الحرية في التفعيل والتشغيل... واللبيب بالإشارة يفهم.

زينب نسيبة امرأة نيجرية مسلمة استأنست بالذئاب، واستوحشت من بني البشر

(قصة من الواقع)

هي ليست امرأة من مشاهير النساء... لم يحدث أن ورد اسمُها يومًا على صفحات الجرائد، ولم تنشر لها صورة على أغلفة المجلات... لم تذكر ضمن قائمة الحائزين على جائزة وطنية أو عالمية... هي امرأة لا تُصنف في عداد الفنانين، ولا الرياضيين، ولا الإعلاميين...

إنها امرأة مسلمة من نيجيريا، ركبتها فكرة الهجرة، وحلمت طويلا بالغربة، فضاقت عليها الأرض بما رحُبت... ثم قطعت على إثر ذلك مئات الكيلومترات، وهي في سفرها لا تملك المال الذي به تستقل طائرة أو سيارة أو حافلة؛ ولا تقدر على تحصيل تأشيرة للدخول في العديد من البلاد التي كتب عليها أن تقطعها طولا.... القليل مما معها من دولارات ادخرته زادا لرحلة العمر مترجِّلة...

ولقد شارفت زينب على الهلاك مرارًا، ولحقها من الأذى ما لا يوصف... ثم إنها استأنست بالذئاب الشرسة، وجاورت الوحوش الضارية... حتى ألفتها فألفتها... واستوحشت من بني البشر، أصحاب الرِّجلين واليدين، واللسان والشفتين... استوحشت منهم؛ لأنهم باتوا بلا قلب ولا ضمير، مذ أمد بعيد...

* * *

وصلت نسيبة إلى ليبيا، ودخلتها من صحرائها، والبلد يومها مستعرٌ فتنة وحربًا، مثخن دمارًا ونارًا؛ ثم بعد مناورات ومقايضات أمدَّت «المهرِّبين، المتَّجرين في أرواح البشر»... أمدَّتهم بما جمعت من مال طوال السنين، وبما قبضت من دراهم يوم باعت أعزَّ ما تملك: من ثياب وزينة، وشويهات وماعز، وقطعة أرض صغيرة يرسو عليها بيتها القصديري المترنح المشروخ... أمدَّتهم بما به يوصلونها إلى شواطئ إيطاليا، هنالك في الجهة العلوية من البحر المتوسط... حيث يستقر حلمها الورديُّ، ويسكن أملها الوحيد في حياة «مقبولة»، «عادية»... لا غير.

كانت تحمل - من يوم غادرت بلدتها وهي أطلال - طفلا صغيرا، بل وليدا رضيعا، ابن العام وبضعة أشهر... طفلا تأقلم مع المحن فصارت بُضعا منه،

وعرف كلَّ الظروف القاسية الظالمة: الحرَّ، والجوع، والعطش، والسجن، والمرض... وهو مع ذلك صابرٌ صبر قهرٍ، متوجِّه بوارداته ولحمه وعظمه إلى الله سبحانه، يلازم الدعاءَ بلسان حاله لا بلسان مقاله... والأم زينب لا تملك أن تشير إليه، ولا هو يقدر على النطق، وهو لا يزال صبيًّا طريًّا؛ ولو استطاع لفعل، ولكشف للعالم عن العار الذي يركب رؤوس البشر...

على متن قارب متجعِّد، سفينةٍ صغيرة مهترئة متكسِّرة، حشِر خمسمائة نفرٍ... بشرٍ... لعلهم من جنس الحيوان أو الجماد في عيون مَن تخذهم بضاعة مزجاة... حُشروا تماما مثل الدجاج، أو الضأن، أو البقر... حشِروا على متن القارب اللعين، حامل الموت على كتفيه، العاض على الأرواح البريئة بنواجذه...

خمسمائة من (....) على متن سفينة هزيلة لا تقدر على حمل مائة من الناس الخفاف، ولقد كانت حياتهم جميعا قاب قوسين... ولقد أشرف الجميع على الهلاك حين هاج البحر وماج، فسقط بعضهم لقمة سائغة للحيتان وأنواع البهائم البحرية الجائعة، تلك التي كانت أرحم بهم من بني جلدتهم...

أمَّا المهربون الفجار، فلقد كانت بين أيديهم وسائلُ للنجاة، لهم وحدهم... وهذه عادتهم... وهي عادة

الكبار يوم يشعلون النار في الدار، ثم يجلسون على الأرائك ينظرون، يضحكون ويسخرون؛ ويحتسون القهوة واضعين رِجلا على رجل، يترقبون لحظة تخمد فيها ألسنة اللهب بعد أن تلتهم الآلاف والملايين...

كم في دورنا ودوارنا، وبلادنا وأوطاننا... من «سادة» أشرار فجار، ومن غاصبين يعاف جوارهم الحمار...

* * *

ثم بعد مضي ساعة أو تزيد، باغتت شرطة مخافر ليبيا، المدرَّبة جيدا لهذه المهمات... باغتت القارب، ووجهت السلاح نحو قائد الدابة الملعونة، حتى يطفئ المحرك، فلم يستجب لأوامرهم القاهرة... ثم هددوه بإطلاق الرصاص حين اقتربوا منه، وأوانها فقط استسلم وأطفأ المحرك...

قبض على الركاب الدوابِّ، وكانت نفيسة وبضع عشرات من النساء معها، وهي تنحب وتنوح... كان ابنها فاغرا فاه، لا يفهم ما يجري، ولا يقدر على تمييز ما يلتهم قلب أمِّه... ثم زاد بكاؤها حشرجة وأسى وأسفا، حين علمت أنها ستقاد إلى سجن في ليبا، ثم منه تسفَّر إلى بلدها نيجيريا، على متن طائرة

عسكرية... وبهذا ستعود إلى نقطة الصفر...

نعَم، ستعود إلى حيث بدأت مشوارها المنهك الحزين...

حينها تمنت الموت، لكن هيهات؛ ثمة حياة تتعقبها هي أقسى عليها وعلى ابنها الغض الطري من ألف ميتة، بألف طريقة ... إنها حياة الفقر، والجهل، والظلم، وفقدان الأمل في الحياة، وفي الدين والقيم، وفي البلاد والعباد...

فهل من مغيث؟ وهل من مُجير؟

زينب وابنها ينتظران الجواب، وعلى شاكلتهما مئات الآلاف من أبناء أوطاننا الجريحة المحتضرة... آلاف ممن هم منسوبون إلى عداد المسلمين، محسوبون إلى أمة سيد الخلق محمد الرحيم...

فإن لم يهتدوا إلى بريق أمل من جوابٍ؛ فإنهم سيحتفظون بسؤالهم العسير إلى يوم العرض العسير... يوم نقف أمامهم، وهم يسائلوننا، ويحاسبوننا، ويطالبوننا بحقهم علينا... ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر: 9-10].

يومها فقط قد يستفيق فينا الإحساس، وقد نجد الجواب الصحيح لأخطر سؤال طرح علينا في مستهلِّ القرن الواحد والعشرين...

هل من مجيب؟!

ملاحظة: القصة واقعية، وليست من نسج الخيال، فهي أقسى من كل خيال... واسم المرأة كذلك حقيقي، فهي قد نسجته من اسم صحابيتين هما: المهاجرة في سبيل الله زينب بنت محمد ﷺ، ونسيبة بنت كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي شاركت رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في العديد من الغزوات.

فهرس المصطلحات والمفاهيم

إحلال السياق الخصب 90
الأزمة . . . 52، 53، 84، 91-95، 123، 124، 132
الأزمة الاقتصادية. . . . . 60، 62
أزمة ضمير متبلِّد. 92
الاستبداد. 131
الاستهلاك . . . . . 94، 161
الإسلاموفوبيا. . . . . 38، 46
الإسلاموفومبيا . . . . . 39، 44
الإطار التربوي 151
الاعتراف بالعجز 159
إعمال العقل 90
إعمال العقل الجمعي 90
أفكار متعفنة. 92
إلزام واجب، لا إلزام مصلحة . . 76
الأنا الجماعي الموهِم 12
إنتاج فكري 168
الإنسان ابن بيئته 9
الإنسان الراشد الرشيد 61
الانفصام بين الفكر والفعل . . 38
أهل الفترة . . . 39، 42، 43، 44
أولويات التعليم. 167
الإيقاع الهبطي 70
البرهان بالنقض 41
بنية العمل 27
بين «الإيمان» و«الإنسان» . . . 72
بين الانتقاء والارتقاء 190
تأمين الطريق 195
التجاوز . . . . . 58، 178
تجاوز القراءة 178
التحكم في المرأة 171
التربة الصالحة 90
التربية والتعليم. 151، 155، 197، 199
تركيبية الظاهرة الإنسانية . . . 48
تضخيم الأنا 65
التطرف . . . . . 38، 39، 46
التعليم. 151، 152، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 167، 171، 193، 197، 199
التعليم الأساسي 161
التعليم التعاضدي 167
تعليم المرأة 169

تغييب الفهم 167
التقاعد . . . . 151، 153، 156
التقاعد المسبق. 151
التقاعد والعطل. 151
تقلب السياسات 159
التلاعب بالوعي. 129
تلة الرماة . 88، 198، 199، 200
التمييز العنصري. . . . 48، 197
التويتر 82
ثورة بيضاء 112
الجعل. 40
جماعات وظيفية 37
جناح الفراشة 9
الجو المعقم 90
حركية الفكر والفعل 178
حرية الرأي 48
حقيقة البحث العلمي الجاد . . 93
حكم الدار 43
الحوت الأزرق الإلكتروني . . 202
خذ المفتاح يا فلاح 94
خفة في العقل 123
خلق متجمِّد 92
الخيارات الحزبية. 159
داء «نعَم» 85
دار الإسلام. 43
دار الحرب 43
دار الدعوة 43
دار السلم 43
دار الشهادة 43
دار الشهود. 43
دار العدل 43
دار الكفر 43
الذات الجمعية 130
ذات حاضرة 119
الذات والموضوع 138
ذاتا منتفخة 119
ذاتية الأسباب 139
الذهول التعاضدي 167
الرخاء المزيَّف 93
الـــروح الجماعية
المؤيَّدة بنصر من الله تعالى 90
رياضة توسيع التنفس 12
الزمن السائل. 129
زمن اللايقين. 129
سذاجة في الفكر 123
سلم الحضارة . . 41، 140، 158
سؤال الأزمة . . . . . 38، 178
السؤال الحضاري. 111
السياق الخصب 90
الشهود الحضاري . . . . 39، 44

الصبيانية 135
الصدق . 121، 132، 155، 199
الصدقية 121
الصراع الحضاري 199
صناعة الخوف 46
صناعة الوعي 37
الصورة الذهنية والإدراكية . . . 43
ضمان المأمن . . . . . 39، 42
ضيق الأفق . . . . . 9، 15، 18
ظاهرة التطرف 38
ظاهرة العنف 38
عرائس القراقوز 132
العربي القذر (sale arabe) . 35
العطل . . . . . 151، 153
العفوية وعدم التكلُّف 121
عقار «الرفض» 85
عقدة سردال 135
علاقة تلازم علّيٍّ (causal necessity) . . . 41
العلم والدين 166
عهد الحزب الواحد 100
الغرم مع الغنم 67
الغزو الاستعماري التربوي . 171
الغزو التربوي 172
غنم بلا غرم 64
غياب الوعي 132
الفايسبوك . . . . . 82، 97، 119
فقدان الذاكرة الكولونيالية . . . 35
فقه الحضارة 138
الفكر الإسلامي . . . . . 76، 119
الفكر التربوي الصيني . . . 151
فن تدبير شؤون العباد 76
فن تدبير وإدارة الممكن 76
القابلية للاستعمار . . 132، 160
القراءة الصاخبة 167
قراءة تأمل 181
القرعجة . 121، 122، 123، 124
كامل النظام 10
كتل من الإحساس بفقدان المعنى 13
لعن الله ضيق الأفق 9
ما قبل الفتح 185
المتنطعون . . . . . 58، 60، 63
مجتمع مكيف اصطناعي . . 192
مخابر البحث 93
المخانق والمضايق . . . 3، 8، 9، 15، 18
المدارس العلمية . . . . . 163، 184، 190، 193، 194، 197
المدرسة الارتقائية 191

المدرسة الانتقائية 191
مسٌّ عقلي (بارانويا) 135
المسلم المتحضِّر 35
مع السلطة أو عليها 82
مع المعارضة أو ضدها . . . 82
معالجة المدرسة 132
معنا أو ضدنا 82
معنى معرفي
(epistemological) 40، 59
معنى وجودي
(ontological) 40
مفهوم وجودي خلقي قيمي . 153
مفهوم وظيفيٌّ قانوني . . . 153
المقاربة بالكفاءات 161
المقدَّس والمدنَّس 166
مكتب الدراسات . . . 186، 188
ملف التعليم . . 158، 159، 163
من اقتصاد
«الاستهلاك» إلى
اقتصاد «الإنتاج 94
من فكرة «الحق» إلى
فكرة «الواجب 94
منظومة الرشد 163
المنعكس الشرطي 37
المنهج القشتالتي 161
موت الفجأة 188
نسخ/لصق 161
النسيج الحضاري 35
نظرية الشواش 10
نظرية الوعاء الحضاري 9
نقطة الانعطاف . . 3، 54، 133
نموذج الرشد . . . . . 9، 151
النموذج المعرفي 153
هستيريا الأزمة 86
الهستيريا الإعلامية 36
هستيريا ترامب . . . 128، 130
الواجب قبل الحق 67
واجبات المتقاعد 151
واحدية الله 165
وحدة المسلمين 115
وزارة التعليم . . 156، 157، 160
وسائل التواصل
الاجتماعي . 80، 82، 99، 119
الوسطية . 38، 40، 41، 42، 45،
49
الوعاء الحضاري . . 9، 60، 163
الوعي الجمعي 200
اليمين المتطرِّف 48

فهرس الأعلام

الإبراهيمي، محمد البشير . . . . . 17، 71
العسقلاني، ابن حجر 59
ابن محبوب، محمد 21
ابن مرزوق، شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد (الجد) 69
ابن مرزوق، محمد بن أحمد بن محمد (الحفيد) 69
آيت سالم، ابن يونس 72
الجرجاني، أبو الحسن 18
أبو حمو موسى 69
الآبلي، أبو عبد الله 69
الغوث، أبو مدين 69
الداعوق، أحمد 213-214
موران، إدغار . . . . . 39، 48، 179
دو نوفو، إدوارد (Edward de neveu) 167
بلينال، أدوي (Edwy Plenel) . . . . . 39، 48، 49
لورون، أريك . . . . . 39، 46
غريش، ألان . . . . . 39، 46
الأمير عبد القادر 171
أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ 189
سبينوزا، باروخ 177
بيوض، إبراهيم 17
ترامب، دونالد . . . . . 128، 129، 131، 133-137
تميم بن حمد 117

الشاوي، توفيق . . . . . 211، 215
لكحل، جمال 132
لانغ، جيفري . . . . . 40، 43، 49
معمَّر، حمزة 121
خالد بن الوليد 198
مطاري، دحمان 121
الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر 58
زوخ، عبد القادر 77
باومان، زيجمونت 129
سايكس، مارك (Mark Sykes) 74
بيكو، فرنسوا جورج (François Georges-Picot) 74
قره، سرجي 129
سلمان بن عبد العزيز 117
نصر، سيد حسين 132
الشريف التلمساني، أبو عبد الله محمد بن أحمد . . . . . 69، 71
أرسلان، شكيب 218
رمضان، طارق . . . . . 39، 48
أبو سليمان، عبد الحميد 131
ابن خلدون، عبد الرحمن 69
ابن خلدون، يحيى 69
عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ 189
بيوض، عبد العزيز 188
مورو، عبد الفتاح . . . . . 20، 211
المغيلي، عبد الكريم 69
كنطابلي، عبد الله . . . . . 18، 141

عبيد الله بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ 198
بيجوفيتش، علي عزت . . . . . 44، 190، 197
عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . . . . . 77، 86، 154
دو غوبينو، جوزيف آرثر (Joseph Arthur de Gobineau) . . . 138
كاستورف، فرانك 128
هيجو، فيكتور 35
الجرجاني، عبد القاهر (القاضي) 142
القطب، امحمد بن يوسف اطفيش . . . . . 17، 21
فخار، كريمة 185
أسكولوفيتش، كلود (Claude askolovitch) . . . . . 39، 47
لانكينغ، لي . . . . . 152، 155، 156، 160، 161، 163
بن نبي، مالك . . . . . 84، 132، 144، 145، 161
بوبلال، مبارك 177
أسد، محمد 44
السنوسي، محمد بن يوسف 69
سالم، محمد عدنان 145
مهاتير، محمد 156
هوفمان، مراد 167
مرسوط، ابن موسى 180
مشري، عز الدين 76
وينتن، مصطفى 72
مفدي زكرياء 70
أنفراي، ميشال (Michel Onfray) 177
كولون، ميشال 107

جابي، ناصر 15
تشومسكي، نعوم. 107
نوتوهارا، نوبوأكي . . . . . 39، 45
ديورانت، ويل 177
بن زيان، يغمراسن 69
غسيري، يمينة 121
ابن تاشفين، يوسف. 69

فهرس الكتب

- إدغار موران وطارق رمضان، في مهب الأفكار، الأسئلة الكبرى لعصرنا . . 39، 48
- إدوي بلينال، إلى المسلمين . . . . 39، 48
- أريك لورون، الوجه المخفي للبترول 39، 46
- ألان غريش، الإسلام والجمهورية والعالم 39، 46
- امحمد بن يوسف اطفيش، شامل الأصل والفرع 21
- إيفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة. المدارس والممارسات الطبية والدين 1830-1880 . 165
- تاريخ التعذيب في الجزائر 35
- توفيق الشاوي، مذكرات نصف قرن من العمل الإسلامي 211
- جيفري لانغ، حتى الملائكة تسأل 49
- جيفري لانغ، ضياع ديني . . . . 40، 43، 49
- زيجمونت باومان، الزمن السائل، أو زمن اللايقين 129

- سرجي قره، التلاعب بالوعي 129
- عظة الناشئين 147
- علي عزت بيجوفيتش، سيرة ذاتية وأسئلة لا مفر منها 44
- كلود أسكولوفيتش: (منبوذونا، هؤلاء المسلمون الذين لم تعد فرنسا ترغب فيهم) Nos Mal-Aimés? Ces musulmans dont la France ne veut pas, . . . 39، 47
- لانكينغ لي، توفير التعليم لـ 1.3 مليار إنسان . . . . 152، 154-160، 162، 163
- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق . . 44
- محمد مهاتير، طبيب في رئاسة الوزراء . 156
- مصطفى وينتن ومحمد باباعمي، أصول الإيمان: التوحيد ووحدة الأمة 72
- ناصر جابي، الوزير الجزائري، أصول ومسارات 15
- نوبوأكي نوتوهارا، العرب وجهة نظر يابانية . . . . . 39، 45
- ويل ديورانت، قصة الفلسفة 177
- يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد 69

ثبت القواعد الكلية

- إذا رأيت معركة بين طرفين ولم تنته، فاعلم أنَّ الصراع فيها بين باطل وباطل . 106، 109
- الأسباب يد الله في قدره 103
- الأمور بمقاصدها 140
- الصراع إذا كان بين حقٍّ وباطل، فلا يطول أبداً؛ لأنَّ الباطل زهوق 106
- التخلية قبل التحلية 192
- الحشر مع غير الجنس عذاب 20
- الخيرية رهينة بصفاتها 138
- مساحة المجهول أكبر بكثير من مساحة المعلوم 99
- لا ضرر ولا ضرار 192
- للحضارة باب واحد، هو باب المدرسة . 133
- ليس من الحكمة ردُّ يد الله وطلب ذاته . 103

ثبت الأسئلة والإشكالات

- التقاعد والعطل: أيهما يليق بالإطار التربوي؟ 151
- أين هي تلة الرماة اليوم؟ ومن هم الرماة المكلفون بالصبر عليها؟ وهل سيتمكنون من استنباط العبر، ومن ثم يلازمون التلة، مهما كانت الظروف؟ أم أنهم يستعجلون ويلتحقون بصفوف المنتصرين، رغبا أو رهبا؟ 199
- هل يا ترى، تتوجب مجاراة هذه الوسائل (وسائل التواصل الاجتماعي)؟ أم الواجب هو مقاطعتها؟ 120
- لو أسقطنا دلالة التنطع على عالمنا اليوم، وعلى أوطاننا وديارنا، فكيف نفهمه؟ وكيف نفسره؟ وكيف نتحاشاه؟ . . . 59
- لو أننا أقصينا من مدراسنا فئة معينة من أبنائنا وبناتنا، ثم اقتصرنا في التربية والتعليم على فئة معينة؛ لاعتبارات معينة، وأسباب قد تكون مقبولة أو غير مقبولة؛ فهل نحن نكرر تجربة التمييز

العنصري، الذي مارسته فرنسا ضدنا، للأسف، لأزيد من قرن من الاستعمار؟ وهل نعمل بذلك على تفكيك عرى المجتمع عروة عروة، من حيث أردنا الصلاح والإصلاح؟ 197

- هل القرآن الكريم يقصر الحقيقة بين الأسطر؟ أم أنه هو الذي يأمرك، بأمر شرعي واجب، أن تقرأ الكون، وتنظر في السماوات والأرض، والدواب والجبال، والشجر والبحار... وحتى في الأنفس والآفاق؟ 181
- هل تمارسون السياسة؟ ما علاقتكم بالسياسة؟ وما هو الخط الواصل بين الفكر والسياسي؟ وبين التربية والسياسة؟ . 76
- هل سنبقى مكتوفي الأيدي؟ وإذا تحرَّكنا، ففي أيِّ اتجاه؟ وكيف نضمن نجاعة حركيتنا؟ وما هي السبل التي تبلِّغنا المقاصد بلا انحراف ولا انجراف؟ وما هي عاقبة السكوت والسلبية علينا جميعا، فُرادى وجماعات؟ ومتى ينتهي هذا المسلسل الشنيع القذر؟ وعلى يد مَن؟ وكيف نخرج بحول الله تعالى من

هذه المحن سالمين، أكثر قوة وصلابة وعزيمة ووعيا؟ 105

- هل عرفتم مرضا سببُه المنع في عالم المترفين؟ 85
- هل من بلغته رسالة الإسلام على هذه الصورة المشوهة، ولم يلتق بالإسلام في نصاعته وجماله وجلاله، ثم لم يؤمن، هل هو ممن ردَّ الحق وتنكَّر للبشير والنذير؟ أم أنه ردَّ هذا الفساد، ولم يردَّ الحقَّ... فهو إذن من أهل الفترة؟ هل من سبيل للخروج من أزمتنا لو وعينا وفهمنا، ولو علمنا وعملنا؟ 43
- هل مَن لم يتعرف على الإسلام إلا من خلال "الدماء"، و"الدمار"، و"القتل".... بغض النظر عن حقيقة ما بلغه، هل نعتبره قد استوفى مدة سماع كلام الله، وهل يفقد الأمان؟ 44
- هلا فكرنا مليا في الواجب قبل الحق، وفي الغرم مع الغنم، وفي عين الله تعالى قبل عين العباد...؟ 67